



مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جنيالوجيا السرديات التأسيسية

سامي كريم موشي
باحث عراقي

20
24

www.mominoun.com

◆ بحث محكم
◆ قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية
◆ 2024-11-04

جنيالوجيا السرديات التأسيسية¹

-تتمة-

6- الجزيرة العربية مسرحاً لصراع أديان الشرق

جاء في المدونات التاريخية أنَّ مهد الإنسان السامي الأول في ما بين النهرين، ومنه تفرَّق في الأرض، فاشتق من الساميين: الآشوريون والبابليون في العراق، والآراميون في الشام، والفينيقيون على شواطئ سورية، والعبانيون في فلسطين، والعرب في جزيرة العرب، والأثيوبيون في الحبشة، ومرجعهم في إثبات ذلك التوراة. ويرى آخرون أنَّ مهد الساميين الحبشة، وقال آخرون إنَّ مهد الساميين جزيرة العرب، ومنها تفرقوا كما تفرقوا في صدر الإسلام، وقال آخرون إنَّ مهد الساميين جنوبي الفرات¹. أما لفظة عرب، فهي قديمة جدًّا، ويشار إلى أنَّ أقدم نص وردت فيه كلمة عرب هو نص آشوري من أيام الملك شلمنصر الثالث ملك آشور، وكان الآشوريون يعنون به بدواة أو إمارة (مشيخة) كانت تحكم في البادية المتاخمة للحدود الآشورية، وكان حكمها يتوسع ويتقلص تبعاً للظروف السياسية وقوة الأمير الذي يلقب نفسه ملكا، ويقال له جنديبو أي (جندب)، ووردت في الكتابات البابلية جملة (ماتواري) ومعنى ماتو أرض، فيكون المعنى أرض عربي أو أرض العرب أو بلاد العرب؛ إذ قصد بها البادية وكانت تحفل بالأعراب².

ويرى بعض علماء التوراة أنَّ كلمة عرب، إمَّا شاعت وانتشرت عند العبرانيين بعد ضعف الإسماعيليين (الإسماعيليين) وتغلب الأعراب عليهم، فهم أقوام بدو رحل سكنوا في المناطق التي تسكنها الأعراب؛ أي أهل البادية، ويرى العلماء أنَّ كلمة عرب لفظة متأخرة اقتبسها العبريون من الآشوريين والبابليين وشاعت بعد لفظة إسماعيليين وصارت نسباً، وصيِّر جد هؤلاء العرب إسماعيل وعدوا من أبناء إسماعيل، على أنَّ لفظة عرب لم ترد عن نصوص جاهلية إلا في ما ورد عن امرئ القيس النص الذي يذكر فيه أنه ملك العرب. أما النصوص العربية الجنوبية، فقد وردت فيها لفظة أعرب بمعنى أعراب ويقصد بها سكان بلاد العرب من البدو والحضر، ولم ترد بدلالاتها القومية إلا في القرآن، ويقال إنَّ أصلها من عبيد سارة تأثراً برواية التوراة، أو بمعنى الشرق، وهكذا تتعدد المعاني لمفردة العرب وتأويلاتها³.

ما يهمننا هنا هو التأكيد أنَّ «الجزيرة العربية لم تكن بمنأى عن التيارات الروحية أو الدينية التي كانت تسيطر على العالم وقتذاك. كانت هذه التيارات تصطرع وتعتلج ويحارب بعضهم بعضاً في أرجاء العالم المعروف. فكان لابد لها أن تدخل في أركان من هذه الجزيرة الشاسعة، وتحاول السيطرة على أفرادها ومجتمعاتها»⁴، فالعرب لم يكونوا منقطعين عن العالم ولم تكن لفظة عرب مستحدثة بالنسبة إلى تاريخ الأقاليم السامية القديمة، بل كانت معروفة ومنتشرة على رقعة جغرافية كبيرة، وأشارت الدراسات إلى أنَّ الجزيرة العربية ربما هي موطن الساميين الأول ومنها تفرقوا، وما يفسر ذلك اغتناء الجزيرة العربية بالخصب ووفرة المياه في عصورها

1 - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، ط4، 1996: ج1/7-10

2 - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، سبق ذكره، ج1/13-17

3 - المرجع نفسه: ج1/19-35

4 - علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الزهد والتصوف في القرنين الأول والثاني الهجري، دار المعارف القاهرة- مصر، ط8 دبت، ج67/3

القديمة جداً، فقد أجمع الباحثون على أن الجزيرة كانت خصبة كثيرة المياه والأمطار في العصر الجيولوجي المسمى (البلايستوسن)، وكذلك حتى العصر الحجري المتأخر تقريباً. وأنها كانت تختلف عن حالها الآن، بل كانت من أخصب بقاع الأرض وأغناها، وقد وجد الباحثون محاراً من نوع المياه العذبة وأدوات الصوان في جزء الربع الخالي، بقايا بحر واسع هو السهل المنخفض المسمى الآن أبو بحر، وقد يقودنا هذا الاعتقاد أو الكشف الجيولوجي أنه ليس من المستبعد أن تكون الجزيرة العربية بالفعل هي موطن الساميين الأول، إذا ما آمنّا بأن السومريين أصلاً هم أقوام جاءت إلى العراق، ولم تكن أول من سكن تلك المناطق من حوض الفرات.

وليس من المهم أن تكون جزيرة العرب هي موطن الساميين الأول، أو أن تكون محاذية لذلك الموطن، فالأمر واحد بوجود الجزيرة العربية وحضورها ضمن الساحة الحضارية القديمة الممتدة لآلاف السنين قبل الميلاد، وأنهم بالأصل يرجعون إلى تلك الأقوام السامية، وأن بلادهم كانت غنية وخصبة وكانوا يعتمدون الزراعة وما تجود عليهم تلك المراعي الواسعة كما عند عرب الجنوب، فإن كل ذلك يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الجزيرة العربية تلاقحت ثقافياً مع المجتمعات المجاورة، وأخذت منها وأعطتها العديد من الأساطير والعبادات والعبادات والآلهة والأوثان.

وربما كان السبب المرجح الآخر هو ما حل بتلك الجزيرة العربية من قحط وجذب منذ نهاية العصور الجليدية، وظل في ازدياد الأمر الذي دفع بعجلة التلاقح الحضاري والانفتاح في تاريخ العلاقات بين الجزيرة وبلدان الشرق الأدنى، إذ تشير المصادر إلى هجرة الآلاف من الساميين إلى الشمال وإلى سوريا عبر الأردن وإلى أفريقيا، وساهموا أيضاً في تكوين سكان النيل، فتكون أقدم علاقات بين الجزيرة وبين أنحاء الشرق الأدنى، ومن بين ذلك بلاد الرافدين هي الهجرات المستمرة بين تلك البلدان، وهناك العديد من الحفريات التي أثبتت من خلال العثور على بعض النقوش القديمة خاصة في جنوب الجزيرة العربية تؤكد عمق الصلات مع البابليين والكنعانيين والأموريين يرجع تاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد، ولعل أهم طريق للاتصال هو الطريق الذي يقطع بلاد العرب عن طريق مكة وجبل شمر حتى يصل إلى بلاد بابل، وكان هذا هو طريق الحج للمسلمين الشرقيين، وطرق التجارة التي كانت مزدهرة في اليمن، فهناك العديد من الإشارات الواضحة للآلهة التي يعبدونها وأشهرها ثلاثة آلهة هي: إثار ونكرخ وود، وعين الإله (ود) بأنه الإله القمر (سين) أو (شهر)، وإثار شكل من أشكال عشتار العراقية، ويرجح أن الثالث هو إله الشمس، فضلاً عن عثور المنقبين على معبد في حضرموت وهو يشبه المعابد البابلية فيه طراز مناضد الذبائح والقرايين، والعديد من الإشارات التي عثرت عليها الدراسات ونتائج الحفريات⁶.

ووفق تلك المعطيات تكون الجزيرة العربية بلا شك قد عرفت حالها حال بقية المجتمعات القديمة معرفة بدائية بحقائق الكون والأشياء، واعتقدوا كما اعتقد غيرهم أن الطبيعة ملأى بقوى غيبية عظيمة، واعتقدوا

5 - طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الوراق، لندن، بغداد، ط1، 2011: ج2/ 213- 214

6 - طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، سبق ذكره: ج2/ 215- 230

بحلول هذه القوى في الأشجار والكهوف، والينابيع، والحجارة⁷، وتطورت شيئاً فشيئاً وتقدمت، فلا بد والحال هذه أنها عرفت النظام الأمومي الذي ساد في كل المجتمعات الأولية، وعرفت أهمية المرأة وأثرها في الخصب والنماء والديمومة والحياة.

لكن مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال، كان لابد لمؤثرات عديدة أن تسهم في عمليات التلاقح المستمرة بين الحضارات، وربما كان للهجرات المتكررة، والنزاعات والحروب⁸ بين الدويلات، الأثر في إيجاد نوع من التبادل الثقافي بين المجتمعات كان من بين أهم تلك المؤثرات هو التلاقح الفكري والتأثر بالموجات الحضارية المجاورة؛ فالكنعانيون من بين أبرز الأقوام الذين كثرت هجراتهم، وتأثروا بالساميين، بما أثر في صياغة تاريخ تلك الأقوام وحضارتهم وأساطيرهم، فـ «العُبور المستمر لتلك الشعوب الكثيرة وتفاعلها بعضها مع بعض أدّى إلى صورة مختلطة من الحضارة، تتكون من عناصر متباينة عديدة، وقد غلب الأثر السامي بفضل ما أسهمت به الشعوب السامية في سوريا وفلسطين من ناحية، وما أسهم به البابليون والآشوريون من ناحية أخرى، فقد جلب هؤلاء أهم عناصر حضارتهم إلى كنعان خلال زحفهم المتصل نحو البحر المتوسط ومصر»⁹.

وبالنظر إلى اتصاف الكنعانيين بالبداءة، فقد كانوا أكثر عرضة للغزوات المستمرة من قبل الممالك والدويلات، فلم يسلموا من الهجمات ومحاولات الاستيلاء والسلب، وسقطوا مرة تلو الأخرى بيد الإمبراطوريات المتعاقبة¹⁰ وكان العبرانيون من بين أهم الأقوام الذين تعرضوا إلى كنعان واستولوا عليها وأسسوا فيها حضارة بدوية جديدة أساسها النظام الذكوري القائم على سلطة الرجل، وأنهم اجتلبوا معهم من تاريخ السبي البابلي منظومة عقائدية وأسطورية كبيرة كانت هي إرث الحضارة السومرية والأكدية، فإنهم-أي العبرانيون- كانت لهم يد «فاعلة في تحويل تقاليد البداءة إلى تقاليد دينية»¹¹ وعملوا بكل تأكيد وضرورة على تحويل تلك الأساطير وتغيير بعض تفاصيلها لتنسجم والوضع الحضاري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي الراهن «فعلى الرغم من تميز كتاب التوراة عن بقية الأدب الديني المشرقي، إلا أنه يحتوي على الكثير من مادة ذلك الأدب، لاسيما الرافديني منه والكنعاني. وعلى الرغم من الاستقلالية التي أعلنها يسوع المسيح عن التاريخ الديني اليهودي منذ البدايات الأولى لكرزته، إلا أن سيرته التي تقصها علينا الأناجيل الأربعة تحتوي على الكثير من المادة التوراتية، ومؤلفوها يقتبسون في معظم الأحيان مقاطع توراتية من أجل توضيح مقاصدهم»¹²، فلم

7 - أحمد محمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، سبق ذكره: 382

8 - كما تعرضت الدويلات الرافدينية إلى العديد من الهجمات من قبائل غازية مثل قبائل الجوتو، والعلاميين، وتعرضت مدن نفر وسومر إلى الخراب، وكذلك خراب سومر وأور وحروب بابل ومن ثم خرابها، وكان لهذه الحروب والصراعات دورها في توسيع النفوذ وانتشار الحضارات وتلاقحها، إذ إن الممالك لم تتوسع، والبلاد لم توحد والإمبراطوريات لم تبن، إلا بواسطة الحروب، والهجرات الواسعة بين الجزيرة ومراكز الحضارات والعمران: أدونيس، ديوان الأساطير، سبق ذكره: الكتاب الثاني/ 376-423، والكتاب الرابع/450

9 - سبتيانو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب بكر، مراجعة: محمد القصاص، دار الرقي، بيروت- لبنان، 1986: 126

10 - المرجع نفسه: 125

11 - محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، رسالة دكتوراه بالجامعة المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937: 21

12 - فراس السواح، أساطير الأولين- القصص القرآني ومتوازياته التوراتية، دار التكوين، دمشق- سوريا، ط2، 2016: 9

تنج المسيحية من أثر كتاب التوراة، ولم يتخلّ العبرانيون عن إرثهم اليهودي الذي مازجوا بينه وبين حضارات الشرق، فهم متمسكون بعقيدة دينية تمنحهم صفة متميزة تقوم على فكرة عهد بين الله وشعب بني إسرائيل، وهذا ما جعلهم محتفظين بتلك العقيدة والعلاقة مع الخالق، وهذا الأمر كفيل بتجاوزهم الأهوال والمحن التي مرّوا بها، ونيل رضا الخالق، فأصبحت عقيدتهم عقيدة قومية ودينية في الوقت نفسه¹³، وبذلك أسسوا منظومة ثقافية أسطورية جديدة وأودعوها كتابهم الخالد الذي انتشر في عموم الحضارات والمجتمعات اللاحقة. وليس من الجديد القول ما للعبرانيين والنصارى من أثر كبير على الحضارة العربية، وتوغلهم في الجزيرة العربية واستيطانهم ونشرهم للديانتين المسيحية واليهودية¹⁴، فالعبرانيون فضلاً عن نزولهم أرض كنعان التي كان العرب على دوام الاتصال بها والاحتكاك بها ثقافياً (رحلة الشتاء والصيف) أنّهم قد جاؤوا العرب في الجزيرة العربية، وكانت هناك مجموعة من الأسباب التي تعزز ذلك الاتصال منها: التجارة، وإنشاء المدن العربية المتاخمة لفارس، والبعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب، تدعو إلى دينها وتنتشر تعاليمها، فقد انتشرت اليهودية في جزيرة العرب قبل الإسلام بقرون، وكوّنت مستعمرات لها في الجزيرة العربية وأشهرها يثرب، ويُعتقد أنّ هؤلاء اليهود هم إما يهود قد نزحوا، أو عرب قد تهودوا، وأنشأوا مستعمرات أخرى في تيماء، وفدك، وخيبر، وفي وادي القرى، حتى نشر هؤلاء اليهود في الجزيرة العربية تعاليم اليهودية وما جاء فيها من تاريخ خلق الدنيا، من بعث وحساب وميزان، ونشروا تفاسير المفسرين للتوراة وما

13 - سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، سبق ذكره: 138. وتشير الدراسات التاريخية إلى أنّ العبرانيين تسللوا إلى مملكة كنعان تدريجياً وعلى شكل دفعات، بعد أن هبط إبراهيم ضيفاً على مملكة شاليم التي كانت تحت حكم ملكي صادق، وعبدا الألهة الكنعانية، وتكلموا لغتهم، ولما حل القحط وجذبت الأرض في كنعان اتجهت الجماعات لهبوط أرض مصر في عهد النبي يعقوب بن إسحق بن إبراهيم برفقة أبنائه وعلى رأسهم يوسف، ونالوا حظوظاً عظيمة بعد علاقة النبي يوسف بالفرعون المصري، ولكن الأمر لم يدم طويلاً حتى أدى الوضع السياسي في مصر مع الفرعون الجديد إلى انقلاب أثر في وجودهم داخل مصر، فتحولوا إلى عمالة رخيصة، ودخلوا مرحلة من المذلة واللعنات، ولكن تهيأت للعبرانيين فرصة استغلوا فيها انشغال مصر بفتن داخلية وصراعات، وانشغال أهل الرافدين بصراعات أيضاً أدت إلى انقسامات فيها، مما أتاح الفرصة للعبرانيين بالهروب إلى كنعان مرة أخرى، وهناك سجل العبرانيون قدرتهم على الاستيلاء والقوة والحرب بوحشية: «فلما فرغ بنو إسرائيل من قتل جميع سكان الغي في الصحراء، وفي البرية التي كانوا فيها، ووقع جميعهم قتلاً بحد السيف إلى أبنائهم، ورجعوا إلى الغي وقتلوا بحد السيف، وكان جملة المقتولين في ذلك اليوم من رجل وامرأة اثني عشر ألفاً جميع أهل الغي، ويوشع مرده يده التي مدها بالمزاريق إلى أن استأصل جميع سكان الغي، فأما البهائم وسلب المدينة، فإنه نهبه بنو إسرائيل لأنفسهم- سفر يوشع: 484.» ولكن بعدما استعادت الدويلات قوتها استطاع الآشوريون ومن بعدهم البابليون من قهرهم وبسط نفوذهم، وساقوهم أسرى وسبوا على شاطئ الفرات ليعيشوا في الأسر زمناً. وفي الأسر وبعد زمن طويل استطاعوا التحالف مع قورش عظيم الفرس لإدخاله بابل مقابل أن يعيدهم إلى أرض فلسطين، وتم لهم ذلك، أخذين معهم كل التراث السومري والبابلي، فضلاً عن التراث الكنعاني، كل ذلك امتزج مع ما لديهم من تراث ديني ومعتقدات يهودية، حتى «حدثت التلفيقة الكبرى خلال القرن الخامس قبل الميلاد، عندما بدأ كهنة اليهود في المنفى بتدوين التوراة في صيغة نهائية، حيث حاول المدونون إظهار الاتجاه اليهودي داخل الديانة العبرية المتعددة الاتجاهات، على أنها ديانة عبرية مستقلة وتمييزة منذ بدايتها الأولى، وأنّ الاتجاهات الأخرى لم تكن إلا تأثيرات غريبة طرأت على الديانة من خارجها، نتيجة الاحتكاك بالشعوب الأجنبية، وقد كان الوضع العام مهياً لترسيخ مثل هذه التلفيقة، بسبب التمايز النسبي الذي حققه أخيراً الاتجاه اليهودي بعد صراعه الطويل، عن الاتجاه الإيلبي الكنعاني العام، وتكوينه لشريعة خاصة وجدت صيغتها النهائية بعد الاحتكاك المباشر بشرائع ثقافة وادي الرافدين الناضجة ذات التاريخ العريق: فراس السواح، لغز عشتار، سبق ذكره: 375.» مع العلم أنّ العبرانيين لم ينسلخوا عن أرضيتهم الدينية وخلفتهم ومرجعياتهم الذكورية الأبوية، وهم يسترفدون ديانات وثقافات المجتمعات المجاورة، وإما كانت لهم اليد في خلق النموذج البدئي وفق ما يتلاءم وطبيعة الشعب العبري المحمل بتاريخ ديني وقصص بني إسرائيل، حتى إنّ انتماءهم يركز على العقيدة أكثر منه على قربي الدم، وهكذا أصبح كتاب التوراة عاكساً لتراثات محلية مختلفة، يتسع لكل حقب الماضي، ونتيجة كل الحضارات السامية المتعاقبة، وحصيلة ما أبدعه الإنسان منذ عصور بدائيته حتى مراحل الخلق الأسطورية والتطور الحضاري؛ «إذ لا يسع المرء إلا أن يعجب ويدهش بما يسمى المعجزة العبرانية، تلك المعجزة التي حولت تلك الأفكار والآراء الساكنة الجامدة والطرز الأدبية التقليدية عند أسلافهم إلى أدب لعله أعظم أدب عرفه الإنسان في حركته وأثره وقوته الدافعة: صمويل كيريمر، من ألواح سومر، سبق ذكره: 239-240»، و: بول فريشاور، الجنس في العالم القديم، سبق ذكره: 227، و: فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، سبق ذكره: 129-140، و: روبرتسن سميث، محاضرات في ديانة الساميين، سبق ذكره: 235

أحاط بها من أساطير وخرافات، فضلاً عن تأثيرهم في اللغة العربية وإدخالهم العديد من الألفاظ والمصطلحات الدينية التي لم تكن معروفة لدى العربي من قبل¹⁵.

إنَّ هذا التداخل الحضاري الكبير بين العرب والأقوام المجاورة، وتحديدًا العبرانيين -مع ما عرفنا من استفاد العبرانيين لثقافات حضارات قديمة وإعادة إنتاجها وفق التصورات اليهودية والثقافة البدوية الذكورية-، سيترك، بلا شك، أثره على عرب الجزيرة، فإنَّ تحولاً كبيراً سيعمل على إنزال الأنوثة من مكانتها السابقة لتحل محلها الذكورة، وستحقق البداوة انتصارها على مجتمعات الزراعة والحضارة.

يشير الأنثروبولوجيون إلى أنَّ الصراع بين البداوة والحضارة، وبين القبائل البائدة والقبائل الباقية، إنما هو صراع قديم تبعه انقلاب أبوي كبير، تمثل في نقل السلطة من الأم إلى الأب، وتحول المجتمع على ضوئه من عبادة الآلهة الإناث إلى عبادة الآلهة الذكور، ومن الطبيعي أن يستتبع ذلك تحولات كبرى على كافة الأصعدة مثل نظم الزواج، والعلاقات الأسرية، ونشوء الجماعات، وظهور الأعمال، ومجموعة من الطقوس والعادات والممارسات الجديدة التي لا بد أن تتألف مع نظام السلطة الجديد.

ويشير الأنثروبولوجيون أيضاً إلى أنَّ ذلك التحول قد مرَّ بأربعة أدوار في أغلب المجتمعات القديمة، فقد عبد الناس القمر بوصفه إلهاً وأطلقوا عليه نجماً وهلالاً عند السومريين، وفيما بعد تم التحول التدريجي لظهور الإله الأب- الذكر الذي تبنت الأيام السبعة عند السومريين، فقد تزوجت الإلهة من مخلوق وهمي، وأصبحت من نسلهما قبائل ارتبطت كل واحدة منها بكوكب من الكواكب السيارة السبعة، ويأتي الانتقال الثالث ممثلاً في أنَّ عشيق الإلهة الأم أصبح ملكاً وقُدس على أنه الهيئة الذكرية للإلهة القمر كما ظهر في الإله الفينيقي بعل هامان. أما الانتقال الرابع، فقد ظهر في تضخيم قوة الملك ومكانته اللتين اكتسبهما من قوة الملوك المحليين الذين يعبدون القمر، على أنَّ الملك الأب نفسه كان قد تقمص الإله القمر، واتخذ من نفسه ملكاً شمسياً كما في الديانة المصرية القديمة، حيث واصل الملك زواجه السنوي المقدس محرراً نفسه من الاعتماد على القمر، وكان يرتدي ملابس نسائية ويضع ثديين صناعيين وبذلك سلب بالتدرج سلطة الآلهة القمرية ومكانتها الدينية، ومنذ ذلك حلَّ التقويم الشمسي بدلاً من التقويم القمري¹⁶، مع أنَّ القمر منذ أقدم العبادات وفي مختلف الحضارات القديمة ارتبط بالأنثى، وتجسد بالأنثى، وعبدته المجتمعات لارتباطه بالأنثى وبالارض ومن ثم بالخصب والعتاء والنمو والحياة، واقترنت حتى دورته القمرية الشهرية بدورة المرأة الشهرية، فسكان الرافدين كانوا يعتقدون أنَّ تمام البدر هو اليوم الذي تحيض فيه عشتار وتستريح من كل أعمالها، لذا ارتبط هذا اليوم بمجموعة من المحرمات كالسفر وأكل الطعام المطبوخ، وإشعال النار، وسمي هذا اليوم سباتو -وهو اليوم نفسه الذي سيتخذه اليهود يوم الرب-، فإنَّ حياة المرأة الفيزيولوجية والسيكولوجية ذات طبيعة قمرية وإيقاع قمري، حتى إنَّ العبادة القمرية سبقت العبادة الشمسية؛ لأنَّ الشمس توحى

15 - أحمد أمين، فجر الإسلام، سبق ذكره: 23-25. و: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، سبق ذكره: 582 وما بعدها.

16 - إبراهيم الحيدري، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، سبق ذكره: 145-146.

بالذكورة، بل كان الاعتقاد السائد أن القمر هو سبب الخصوبة، وأنه هو الذي ينفخ الحياة في أرحام النساء، وأن الأم القمرية هي التي ترعى حياة النساء الحوامل¹⁷.

وهناك العديد من الإشارات إلى ذلك التحول الهائل الذي أصاب الحياة، ومنها ما جاء في ملحمة جلجامش التي تصور وقوع الإلهة الأم بحب البطل جلجامش، ولكن الأخير يرفض طلبها بالزواج، فتحاول الانتقام منه وتخلق له ثوراً سماوياً للانتقام، ولكن جلجامش ينتصر عليه ويصرعه ومن ثم ينتصر على عشتار الإلهة الأم، ويعلن رفضه لها ويمضي في طريق البطولة والخلود¹⁸، وهنا إشارة واضحة إلى بداية الانكسار والتراجع لمكانة الإلهة الأم بعد أن صعد عليها النموذج البطولي المتمثل بالرجل صاحب القوة العضلية، ولما عجزت عشتار بوصفها امرأة، فقد خلقت له ثوراً سماوياً ليقاوم جلجامش، وهو منطلق القوة ذاته الذي فرضته قيم الذكورة في مرحلة من مراحل المجتمعات، والأمر نفسه كما وجدناه مع (تيامت) فقد عجزت وقهرت أمام مردوخ بسبب عامل القوة نفسه الذي واجهها به الأخير، وهو تمثيل لانتصار الحضارة على الطبيعة، فتيامت وعشتار كليهما لم يصنعا شيئاً صناعة، وإنما كان لجوؤهن إلى الطبيعة في صراعهن مع القوى الذكورية، فالمرأة مرتبطة بالطبيعة ارتباطاً رمزياً. والرجل مرتبط ارتباطاً رمزياً بالصناعة والقنص والقوة، فمردوخ ينتصر بنوعية السلاح الحضاري (الرمح، والقوس، والشبكة)، وتعامت تقاتل بقوة الطبيعة من حيوانات، أسود، وثيران، وعفاريت، وكذلك الأمر بالنسبة إلى عشتار في ثورها السماوي، وبذلك يكون انتصار جلجامش وانتصار مردوخ هو الانتصار على الطبيعة¹⁹ نفسها وإعادة تشكيلها من جديد على نحو ما تفصل فيه أسطورة الإينوما إيليش من إعادة خلق كل شيء في الكون من جديد على يد مردوخ؛ أي إعادة هيكلة الحياة وفق نظامها الذكوري الجديد.

وهكذا أخذت المرأة بالتراجع عن مكانتها بالسلب، ومع تقدم المجتمعات الرافدينية ودخول تلك الدول في صراعات وحروب كما حصل مع آشور وبابل، وظهور شرائع وقوانين تنظيمية وأحوال شخصية، مثل شرائع حمورابي وأورنمو، بدأ عصر مأسسة النظام الذكوري وأخذت الشرائع بتقييد دور المرأة، وجعلها مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالرجل، وأصبحت اتكالية مدى الحياة على الأزواج والآباء، وسُلّعت قدراتهن الجنسية وأقصيت المرأة من السلطات ومن الجوانب العسكرية، ومع بداية الألفية الثانية قبل الميلاد أقصيت المرأة من التعليم الرسمي، وفُرضت عليها عقوبات عديدة وخاصة المتزوجة منها، وأُنيطت إرادتها وحياتها تحت رحمة الرجل²⁰.

وكان العرب من بين جميع الأقوام والمجتمعات التي مرت بهذه المرحلة على نحو ما حصل في حضارة وادي الرافدين التي انقلبت فيها سلطة الابن (مردوخ) على سلطة الأم (تيامت) وهبوط عشتار إلى العالم السفلي

17 - فراس السواح، لغز عشتار، سبق ذكره: 74-85

18 - أدونيس، ديوان الأساطير، سبق ذكره: الكتاب الرابع/ 337-349

19 - تركي علي الربيعو، العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، ط2، 1995: 152

20 - ميادة كيالي، المرأة والألوهة المؤنثة في حضارات وادي الرافدين، مؤسسة مؤمنون بلا حدود- المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2015: 130-136

والحكم عليها بالموت. فلم يكن المجتمع العربي ببعيد عن تلك المؤثرات، والظروف الاقتصادية، والبيئية، والسياسية، والثقافية، وغيرها الكثير التي ستحدث انقلاباً نوعياً في عقلية الإنسان العربي، وتتحول آلهته من الإناث إلى الذكور، ويصبح الرجل هو السيد والشيخ والرئيس، وتصبح المرأة ربّة المنزل وراعية الأولاد، ولاشك أنّ ذلك التحول سيقود بالضرورة إلى تحول آخر في مجرى الحياة العقائدية والدينية، بغية استحصال المشروعية والمرجعية الميتافيزيقية الجديدة، كي تنسجم مع ذلك التحول، وربما كان لأسطورة عمرو بن لحي الدور الكبير في ذلك التحول، إذ جاء فيما نقلته الأخبار أنّ عمرو بن لحي كان يذهب إلى الشام وإلى (شط جده)²¹ ويأتي بالأصنام فيأمر العرب في موسم الحج بعبادتها قاطبة²²، ومن المؤكد أنّ حمل الأصنام إلى العرب لا يعني أنه جاء بها منحوتة فحسب، بل استعار معها أساطيرها ومرجعياتها التي لا بد أن تسهم في عملية التوجيه والإقناع ليضمن نجاعتها في البيئة الحاضنة الجديدة، وإلا كيف تستنّى لعمرو بن لحي أن يدعو العرب فيهرعون إلى عبادة تلك الأصنام الوافدة دون المعرفة بأصولها وتاريخها وأساطيرها المكوّنة، ومن المعروف أنّ المجتمعات ليس من السهل تغيير عقائدها؛ لأنها نابعة عن إيمان ديني له أصوله الأسطورية المتجذرة، ولهذا كانت دعوة الرسول محمد غاية في الصعوبة حينما حاول تغيير عقائدهم الدينية ودعوتهم إلى عبادة إله واحد، بتحطيم اللوغوس الذي تمركزوا حوله في عبادتهم للأصنام مع معرفتهم بالإله الواحد، وهذا ما يجعلهم يدورون حول تقديس الأصنام، فالرسول لم يسع لتفكيك منظومة الإيمان الكلية لدى العربي؛ لأنّ العرب كانوا يعرفون الإله الواحد، وهو ما اهتدت إليه البشرية في الأديان كافة مع التقدم الزمني لمرحلة ما بعد المسيحية، ولكن طريقة عبادتهم لهذا الإله الواحد مغايرة وميثية وشائكة، إذ لم يتمكن الإنسان من معرفة الله كما هو في الديانات السماوية، الأمر الذي يصعب على الإنسان العربي ذي العقلية المادية الحسية أن يدرك معنى تجريدياً خالصاً، فكانت دعوى الرسول محمد هي تفكيك منظومة الاعتقاد بالصنمية وإلغاء التمركز حول ذلك اللوغوس الذي شكلته الذهنية الأسطورية، فكيف تستنّى لعمرو بن لحي أن يغير عبادة مجتمع بكامله، إن لم يكن قد خاطبهم بالمنطق الأسطوري نفسه، ومارس عليهم فعلاً خطابياً مشحوناً بالميثيات والخرافات حتى تستسيغهم الذهنية الأسطورية العربية القديمة، وهو ما أفرز بالنتيجة مجموعة من الأساطير والخرافات والحكايات التي أسست لنظام ذكوري جديد أنهى بدوره كل الصلات مع عالم النظام الأمومي (كما رأينا في أسطورة مردوخ بعدما صرع تيامت؛ إذ أخذ بإعادة خلق الكون من جديد، وهو ما يشير إلى تبدل أنظمة الحياة وتبدل أساطيرها مع ذلك التحول الكبير)، وإن بقي منها شيء، كما مرّ ذكره، فإنها هو مجرد ممارسات أفرغت من محتواها الطقوسي والديني، وأصبحت ممارسات لا تشكل خطراً أو تهديداً على مجمل النظام الأبوي الجديد.

ولهذا، سنجد أسطورة الخلق العربية التي سبق ذكرها أسطورة عبرانية التحول، رافدينية الأصل، فالعبرانيون قد أخذوا تلك الأسطورة من بلاد الرافدين وحولوها على وفق نظامهم البدوي الذكوري إلى أسطورة توراتية،

21 - شط جده هو البحر الأحمر الذي تطل عليه جدة، وهذا ما أشار إليه المحقق في هامش كتاب الأصنام، وهذه المنطقة الواقعة على شاطئ البحر الأحمر على امتدادها هي المنطقة التي سكنها العبرانيون المتصلة وفلسطين والأردن بكنعان عبوراً إلى الضفة الأخرى.

22 - ابن الكلبي، كتاب الأصنام، سبق ذكره: 54

وهذه الأسطورة التوراتية وجدت طريقها إلى ذهنية العربي البسيط وتغلغلت في عقائده وطقوسه وممارساته وعاداته وحتى إيمانه، وأصبحت كما عند العبرانيين من قبل جزءاً لا يتجزأ من إرث حضاري ومعرفي وديني لا يمكن المساس به أو مراجعته.

لقد جاء في الأسطورة السومرية أن المخلوقات الأولية لم تكن تعرف الخبز، ولا يعرفون تغطية أجسادهم بالكساء، كانوا يمضون ويعودون بكامل عريهم، كان ذلك على الجبل المقدس، حيث كانت تعيش الآلهة ولم تكن بعد قد أنزلت من أعلى الجبل المقدس (النعجة- الأم، والحبوب)، فالبشر كانوا يعيشون في جنة فقدوها فيما بعد، فبعد الطوفان السومري وإنقاذ البشرية من قبل الفائق الحكمة بتوجيهات الإله إنكي، فإن الآلهة تقرر فرض الموت عليهم، وتذكر دلمون (البلد الطاهر) هو المكان الذي ستشرق فيه الشمس حيث استقر فيها الإله إنكي مع قرينته وأصبحت المدينة بكاملها منورة وطاهرة، ولكن ما حصل أن الإله إنكي بينما كان يحيي أشجار بساتين دلمون لإنبات الأثمار، يعمل على إغواء الفتاة اليافعة أوتو الجميلة، فيأتيها بالثمار ويغريها، ويضاجعها إنكي، ولكن هنا تغضب الإلهة نينخورساج وتتدخل سريعاً وتستخرج المني من بين فخذي أوتو وتخلق منه ثماني ثمار، وبعد ذلك فإن إنكي يتجاوز حدوده ويقرر مصير النباتات التي خلقتها الإلهة- الأم ويتذوقها الواحدة تلو الأخرى ويتعرف على طبيعتها مقررًا لكل منها مصيرها، وبهذا يحل عليه غضب نينخورساج التي تعلن أنها لن تمنحه نظرتها للحياة وتحتم عليه الموت، وتسوء حالة إنكي، وهنا يظهر الثعلب الذي يكحل عينه ويلمع وبره للتدخل ساعياً بين إنكي ونينخورساج، وبعد موافقتها تعود إلى المدينة وتقوم بدورها لإشفائه وتخلق من أجل ذلك إلهات عدة تختص كل واحدة منهن بشفاء عضو مريض من أعضائه، ومن بين تلك الأعضاء ضلعه الذي يؤلمه، فتخلق له نينخورساج الإلهة نينتي؛ نين- تي، أي (سيدة الضلع)²³.

حين استقر فيه إنكي مع قرينته

أصبحت المنطقة (برمتها) طاهرة ومنورة

عندما استقر في دلمون مع فريده، (...)

.....

في دلمون قبل ذلك لم يكن أي غراب ينشق

ولم يكن أي حجل يغرد (...)

.....

لا أحد غيري يجتاز الهور، قال إنكي مقسماً باسم آن

ومن أجل التي اضطجعت في الهور

وتمدت في الهور

من أجل دامكال- نوًا خصص إنكي منيه

وسكبه في رحم نينخورساج

وبتلقيا في رحما المنّي، مني إنكي،

.....

عند ذلك، ومن أجلها، عد اليوم شهرًا

واليومان شهرين

والثلاثة، ثلاثة أشهر

والخمسة، خمسة أشهر

والسته، ستة أشهر

والسبعة، سبعة أشهر

والثمانية، ثمانية أشهر

والتسعة عدت تسعة أشهر

أشهر الحمل التسعة

بعد ذلك، كالزيت الناعم (لزوجة)

كالزيت الناعم كالدهان الثمين.

نينكورا كالزيت الناعم

كالزيت الناعم، كالدهان الثمين،

ولدت اوّو (إلهة النسيج)

المرأة الجميلة

مرة أخرى عمد إنكي إلى توفير الماء

ملاً بالماء المجاري

ملاً بالماء الحفر

ملاً بالماء الأرض الموات

امتلاً قلب البستاني فرحاً

فضم إنكي بين ذراعيه قائلاً:

من تكون إذن؟ أنت الذي رويت بستاني؟

أجاب إنكي البستاني:

أجاب [...]

اجلب لي المشمش مع [...]

اجلب لي التفاح مع [...]

اجلب لي عناقيد العنب الريان

قدم له البستاني المشمش مع [...]

قدم له التفاح مع [...]

جلب له عناقيد العنب الريان تملأ حضنه

حمل إنكي عند ذلك عصاه، تملؤه البهجة

ذهب للقاء أوتو (في مقرها)

صرخ حين وصل أمام البيت: افتحي افتحي

- من أنت؟ (قالت له)،

- أنا البستاني أحمل إليك هدية، المشمش التفاح والعنب

ابتهجت أوتو وفتحت عندئذ باب بيتها

فقدم إنكي إلى المرأة الجميلة

قدم لها المشمش مع [...]

قدم لها التفاح على [...]

قدم العنب الريان

وكانت أوتو تضرب بكفيها على فخذها

وتصفق فرحاً

لكن إنكي بعد أن تذوقت اوتو ثماره

عانقها وشدها إلى صدره

تلمس فخذها وبّت عليهما

قبلها وضغط عليها بجسده

ولج المرأة الفتية وجامعها

سكب في حضنها منيه

في حضنها تلقت المنى، مني إنكي

صاحت المرأة الجميلة عند ذلك:

« آه فخذاي، آه جسدي، آه قلبي»

لكن نينخورساج استخرجت المنى من بين فخذها

.....

خرج عندئذ إنكي من الهور

وقال لايسمود حاجبه:

أنا لم أقرر بعد مصير تلك النباتات

كيف يمكن ذلك؟ قل لي

كيف يمكن ذلك؟

فأجابه ايسمود:

يا مليكي، هذه هي النبتة - المتشجرة

وقطع له منها جزءا ليتذوقه
يا مليكي، هذه هي النبتة- ذات الحلاوة
وقطع له منها جزءا ليتذوقه
يامليكي، هذه هي العشبة- السيئة- على الدروب
وقطع له منها جزءا ليتذوقه
يا مليكي، هذه هي النبتة- أنومون
وقطع له منها جزءا ليتذوقه
يا مليكي، هذه هي النبتة - الشائكة
وقطع له منها جزءا ليتذوقه
يا مليكي، هذه هي النبتة- ذات - الأزرار
وقطع له منها جزءا ليتذوقه
يامليكي، هذه هي نبتة - ال...
وقطع له منها جزءا ليتذوقه
يامليكي، هذه هي نبتة - ال...
وقطع له منها جزءا ليتذوقه
يامليكي، هذه هي نبتة- الآمخارو
وقطع له منها جزءا ليتذوقه
هكذا عرف إنكي طبيعة تلك النباتات
وقرر لكل منها مصيرها
وحين أقسمت باسم إنكي، أعلنت نينخورساج:
لن أمنحه بعد ذلك نظرتي للحياة
ومن أجل ذلك سيموت

لبس الانوناً عند ذلك التراب حزنا
 لكن الثعلب الذي كان حاضراً، قال لانليل:
 ماذا ستكون مكافأتي إذا ما اعدت نينخورساج؟
 فأجابه انليل:

إذا ما أعدت نينخورساج
 إلى مدينتي [...] سوف ازرع لك شجرة كيشكانو
 وسوف تصبح مشهوراً
 لمخّ الثعلب وبره استعداداً
 و[.....]

وزين بالكحل عينيه

.....

حين أخذت نينخورساج إنكي في حضنها
 قالت:

ما الذي يؤلمك يا أخي؟

- رأسي يؤلمني

- سأخلق إذن من أجلك الإله آبا - او

- ما الذي يؤلمك (أيضا يا أخي)؟

- شعري يؤلمني

- سأخلق من أجلك عندئذ الإلهة نينسيكيلا

- ما الذي يؤلمك (بعد) يا أخي؟

- أنفي يؤلمني

- سأخلق من أجلك إذن الإلهة نينكيري - اوتو

- ما الذي يؤمك (أيضا) يا أخي؟
- فمي يؤمني
- سأخلق من أجلك إذن الإلهة نينكازي
- ما الذي يؤمك (أيضا) يا أخي؟
- حنجرتي تؤمني
- سأخلق من أجلك إذن الإلهة نازي
- ما الذي يؤمك أيضا يا أخي
- ذراعي تؤمني
- سأخلق من أجلك إذن الإلهة آزيموا
- مالذي يؤمك (أيضا) يا أخي؟
- ضلوعي تؤمني
- سأخلق من أجلك إذن الإلهة نينتي
- ما الذي يؤمك (أيضا) يا أخي؟
- متناي يؤلمانني
- سأخلق من أجلك إذن الإلهة إنشا - آج
- قال إنكي عندئذ:
- بما أنك خلقت هذه الآلهة الثانوية
- فان آبا- او سوف يكون ملك النباتات
- وينسيكيلا سوف تكون سيده الماجان
- وسوف تتزوج نينكيري - اوتو من نينآزو
- وسوف تعمل نينكازي على تحقيق الرغبات
- ونازي سوف تتزوج من نيندارا

- وأزيموا سوف تتزوج نينجيشزيدا

- وستكون نينتي سيدة الأشهر

- وسوف يكون إن - شا - اج سيد دلمون

- المجد لك يا إنكي المعظم.²⁴

في هذا النص الأسطوري السومري الذي يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وهو يتحدث عن مدينة دلمون، وهي تسمية سومرية للمنطقة الواقعة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية التي تشمل جزر البحرين وفيلكا والشاطئ المجاور لهما²⁵.

هذه الأسطورة السومرية مثلت النموذج الأول الذي صاغه العبرانيون على بنياته الرمزية أسطورة الخلق التوراتية، التي قدمت مجموعة من الأساطير عن بدء التكوين وخلق الإنسان، وقصة آدم وحواء، معصيتهما بأكل ثمار الشجرة، وخلق حواء من ضلع آدم، وإغواء الشيطان الذي تلبس بهيئة حيوان من حيوانات الجنة، وهبوطهما إلى الأرض في النهاية. ولو راجعنا أسطورة الخلق التوراتية لعثرنا على العديد من المقابلات التي وظفت بدلالات متشابهة حيناً ومغايرة في حين آخر، وهنا لابد من عرض أسطورة الخليقة التوراتية:

«في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خاوية خالية، وعلى وجه الغمر ظلام، وروح الله يرف على وجه المياه. 3 وقال الله: «ليكن نور»، أن النور حسن. وفصل الله بين النور والظلام. وسمى الله النور نهاراً والظلام ليلاً. وكان مساءً وكان صباح: يوم أول».

«وقال الله ليكن في وسط المياه جلد. يفصل بين مياه ومياه فكان كذلك صنع الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وسمى الله الجلد سماءً. وكان مساءً وكان صباح: يوم ثان».

«وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثلنا، وليسلط على سمك البحر وطيور السماء والبهائم، وجميع وحوش الأرض، وكل ما يدب على الأرض فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلق البشر، ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله فقال لهم أموا واكثروا وأملأوا الأرض، وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وطيور السماء جميع الحيوان الذي يدب على الأرض. وقال الله ها إنا قد أعطيتكم كل عشب يبزر بزراً على وجه الأرض كلها، وكل شجر يحمل ثمراً فيه بزراً، هذا يكون لكم طعاماً ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دابة على الأرض فيها نفس حية، أعطيت كل عشب أخضر طعاماً. وكان كذلك ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً. وكان مساءً وكان صباح يوماً سادساً».

24 - أدونيس، ديوان الأساطير، سبق ذكره: الكتاب الأول/ 26 - 38

25 - المرجع نفسه: الكتاب الثاني/ 26

.....

«هذه مَبَادِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حِينَ خُلِقَتْ، يَوْمَ عَمَلَ الرَّبُّ الْإِلَهُ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ. كُلُّ شَجَرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ فِي الْأَرْضِ، وَكُلُّ عُشْبِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَنْبُتْ بَعْدُ، لِأَنَّ الرَّبَّ الْإِلَهَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَمْطَرَ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا كَانَ إِنْسَانٌ لِيَعْمَلَ الْأَرْضَ. ثُمَّ كَانَ ضَبَابٌ يَطَّلِعُ مِنَ الْأَرْضِ وَيَسْقِي كُلَّ وَجْهِ الْأَرْضِ. وَجَبَلَ الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ تَرَابًا مِنَ الْأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً. وَعَرَسَ الرَّبُّ الْإِلَهُ جَنَّةً فِي عَدْنِ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الْإِلَهُ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنِ لَيْسَقِي الْجَنَّةِ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ اسْمُ الْوَّاحِدِ فَيْشُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الذَّهَبُ وَذَهَبُ تِلْكَ الْأَرْضِ جَيِّدٌ. هُنَاكَ الْمُقْلُ وَحَجْرُ الْجَزَعِ. وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي جِيحُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّلَاثِ حَدَاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَسُورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ الْفِرَاتُ».

«وَأَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنِ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. وَأَوْصَى الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ قَائِلًا مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلْ أَكْلًا، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا، لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا مَوْتٌ وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحَدَهُ، فَاصْنَعْ لَهُ مَعِينًا نَظِيرَهُ وَجَبَلَ الرَّبُّ الْإِلَهُ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ، فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا، وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. فَدَعَا آدَمَ بِأَسْمَاءِ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ وَجَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مَعِينًا نَظِيرَهُ. فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الْإِلَهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ الْإِلَهُ الضِّلَعِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ هَذَا الْآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذَا تُدْعَى امْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنْ امْرَأَةِ أَخَذْتُ لَذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. وَكَانَا كِلَاهِمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لَا يَخْجَلَانِ».

«وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أُحْيِلَ جَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمَلَهَا الرَّبُّ الْإِلَهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ أَحَقًّا قَالَ اللَّهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ لِلْحَيَّةِ مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللَّهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمَسَاهُ لئَلَّا تَمُوتَا فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللَّهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتِ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لِنَفْسِهِمَا مَازِرًا».

«وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الْإِلَهُ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الْإِلَهُ فِي وَسْطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنادَى الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ أَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لِأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ فَقَالَ مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا؟ فَقَالَ

آدَمُ الْمَرْأَةَ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِيَ هِيَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ فَقَالَ الرَّبُّ لِلْمَرْأَةِ مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ فَقَالَ الرَّبُّ لِلْإِلَهِ لِلْحَيَّةِ لِأَنَّكَ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وَحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكَ تَسْعِينَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَأَضْعُ عِدَاوَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكَ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقْبَهُ وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ تَكْثِيرًا أَكْثَرَ أَتَعَابِ حَبْلِكَ، بِالْوَجَعِ تَلْدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجْلِكَ يَكُونُ اشْتِيَاقُكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ وَقَالَ لِآدَمَ: لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةُ الْأَرْضِ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تَنْبُتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بَعْرِقِ وَجْهَكَ تَأْكُلُ خُبْرًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَخَذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ.

«وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَاءَ» لِأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. وَصَنَعَ الرَّبُّ لِلْإِلَهِ لِآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمَصَةً مِنْ جِلْدٍ وَالْبَسَهُمَا.»

«وَقَالَ الرَّبُّ لِلْإِلَهِ هُوَذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مَنَا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالْآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الْإِلَهِ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الْأَرْضَ الَّتِي أَخَذَ مِنْهَا. فَطَرَدَ الْإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكُرُوبِيمَ، وَلَهَيْبٍ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ»²⁶.

هذه هي الأسطورة أو القصة التوراتية لخلق آدم أو خلق الكون، فليس من العسير تلمس أوجه الشبه العميقة بين الأسطورة السومرية والقصة التوراتية، فبداية الخلق كانت من غمر المياه، ولم يكن شيء قد خلق على الأرض، لا وحوش، ولا طيور، ولا نبات، ومن ثم فتق الرب الأنهار ومجاميع المياه، ومن ثم ظهرت اليابسة على يد الرب الإله، وعلى يد إنكي في الأسطورة الرافدينية ملأت المياه المجاري ووزعت الأنهار وتفرجت المياه الحلوة، ومن ثم فكر الرب الإله بخلق بشر يشبهونه في التوراة، وفكر إنكي بخلق البشر، وفي كلتا الأسطورتين كان الخلق من التراب، وكان إنكي وحده، حتى خلقت له نينخورساج قرينته دامكال نونا، ليكون الخلق نتيجة تلك الممارسة الجنسية التي تمت بين إنكي وابنته، وفي التوراة يكون آدم وحده حتى يخلق الرب الإله له قرينته من ضلعه ويمارس معها الجنس ليكونا البشرية، وتلد حواء هابيل وقاين.

وإذا كان إنكي هو المبادر بالإغواء من إنو، فإن حواء التوراتية هي المغوية لآدم؛ لأنَّ الأسطورة السومرية صيغت في عصر النظام الأمومي الزراعي، والأسطورة التوراتية صيغت في ظل نظام أبوي رعوي قمعي، ونلاحظ أنَّ كلتا الحكايتين تتعلقان في عملية الإغواء بأكل الثمار، إنكي يقدم الثمار لإنو للإيقاع بها، وحواء تقدم الثمار لآدم للإيقاع به، وإذا كان الثعلب قد استعمل دهائه وتزيين لإنكي، فإنَّ الحية هي التي ستستعمل مكرها لتوقع بحواء، ففي كلتا الحكايتين هنالك وسيط، الثعلب في الأسطورة السومرية، والحية (ومن ثم حواء)

في الأسطورة التوراتية، وكلاهما في الحكايتين قد استحقا العقوبة، آدم يعاقب بالشر والأرض الملعونة، وإنكي يعاقب بالمولت واللعة التي تقوده إلى المرض²⁷.

ونلاحظ أيضاً أنَّ الأسطورة التوراتية استعارت نموذج الضلع المعوج أو المكسور الذي يؤم إنكي وخلق له الإلهة ننّي (سيدة الضلع) فإنَّ آدم في الأسطورة التوراتية سيخلق له الرب الإله أنثى من ضلعه المعوج، وتأتي دلالاته في الأسطورة التوراتية من خلال العقوبة؛ إذ ستكون حواء تابعة للرجل، وبه تأتمر وهو سيدها، كما لم تغفل الأسطورة التوراتية عملية الولادة، فالأسطورة السومرية تؤكد أنَّ الولادة كانت (كالدهان أو كالزيت الناعم) ولم تذكر الأم أو الشدة في الولادة، بل أكدت سهولتها وبساطتها بوصفها (كالزيت أو كالدهان)، فإنَّ الأسطورة التوراتية استعارت هذه اللمحة لتجعل المرأة معاقبة بألم الولادة والمخاض والأحزان؛ لأنَّ الأسطورة التوراتية ليس بإمكانها أن تجعل الولادة سهلة كما في الأسطورة السومرية، بل ستعمل على سياسة استلاب وتهميش للجانب الأنثوي، فتعمل على إقران تلك الآلام بالخطيئة والعقوبة، كما لو كان ثمة تفاوت بين وصف الأسطورة والواقع الذي يعيشه المجتمع الرافديني، وسيكون ذلك راجعاً إلى أنَّ هذه الولادة هي ولادة الآلهة التي ربما تختلف عن ولادة البشر الصعبة، وهو أمر طبيعي قابل للتصديق بالنسبة إلى الإنسان الميثي في تصوره لولادة الآلهة التي لا يمكن التحقق منها أو إثباتها، ولكن في الأسطورة التوراتية لا يمكن معها نفي حالة الأم المصاحبة للولادة؛ لأنها تتحدث عن البشر مما سيولد فرقاً بين الواقع وبين الحكاية الأسطورية، فجاء وصف الأم والحزن المرافق للولادة بسبب تلك الخطيئة فحلت بوصفها لعنة على النساء.

كما تجدر الإشارة إلى أنَّ اسم حواء لم يرد عند العرب إلا من خلال الأسطورة التوراتية، ولم يذكر اسمها حتى في القرآن فيما بعد، ولكن هذا الاسم (حواء) هو الاشتقاق العبراني لكلمة حي، والمأخوذ من (نن - تي)

27 - هناك أسطورة سومرية أخرى (إنليل وننليل - زواج الإله إنليل) تحكي قصة بداية خلق الآلهة، حيث لم يكن شيء على وجه الحياة سوى الآلهة في مدينة الآلهة (مدينة نغر)، حيث لم يكن سوى الإلهة الأم نُنبار شيغونو، والإله الابن إنليل، والفتاة ننليل ابنة شيغونو، وهنا تحذر الإلهة الأم ابنتها ننليل أن لا تنتزه وتخرج إلى طول القناة الأميرية، ولكنها تخرج ويراها الإله إنليل ويطلب منها المضاجعة، ولكنها ترفض خوفاً من أمها، ولكنه يصنع قارباً ويجامعها فتلد الإله سين إله القمر، وعلى أساس ذلك تغضب الإلهة وتقرر معاقبة الإله الابن إنليل بمغادرة المدينة والهبوط إلى العالم السفلي، وتتبعه ننليل إلى عالمه السفلي: أدونيس، ديوان الأساطير، سبق ذكره: الكتاب الأول/ 39-48

السومرية، تي بمعنى (أحيا)؛ أي من الحياة أو الجزء الحي، وجاءت على لسان آدم أنها خلقت من جزء حي²⁸، ولهذا ورد هذا الاسم ضمن الأساطير العربية وأصبح اسم زوجة آدم الصريح بصورة نهائية²⁹.

7- بنات الله (اللات والعزى ومناة) بقايا العصر الأمومي

كانت (اللات والعزى ومناة) ثالوثاً أثوثياً مهيمناً على بقية الآلهة عند العرب قبل الإسلام. وكانوا يعبدونها ويعتقدون أنها (بنات الله). وهذه الأصنام هي التي ذكرها القرآن: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ} [النجم: 19-22]، ومن أناشيد العرب الدينية، قولهم: «واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرائق العُلا، وأن شفاعتهن لترتجى»³⁰.

وهذه الغرائق هي التسمية العربية القديمة للآلهة الثلاث (اللات، والعزى، ومناة) وكانت آلهة تعبد عند العرب³¹، وجاء في أسطورة اللات «أن رجلاً ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف يبيع السمن على الحاج إذا مروا به، فبليت سَوَقِهِمْ. وكان ذا غنم، فسميت صخرة اللات، فمات، فلما فقده الناس، قال لهم عمرو: إن ربكم كان اللات فدخل جوف الصخرة»³²، إنها كانت صخرة بيضاء منقوشة وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا اللات، يعنون مؤنثة منه. وكذلك كانت

28 - يبدو أن الأسطورة الوحيدة القائلة بخلق حواء من آدم أو من ضلعه أو من جزئه الحي هي الأسطورة التوراتية، وهي أقدم الأساطير بالنسبة إلى عرب الجزيرة، في الوقت الذي لم نجد أساطير الحضارات الأخرى تشير من قريب أو من بعيد إلى ذلك المعنى، بل لا نجد أية إشارات لما ورد في التوراة والإنجيل والأسطورة العربية، ففي التراث اليوناني أن المخلوق الأول أو (آدم) حيوان كسائر الحيوانات (من حيث الخلق) تولد من أعضاء غير مؤتلفة ثم اتصلت ثم أصبحت بصورة تماثل، وعند آخرين أنه تولد من رطوبة الأرض كما تولد سائر الهوام وكان جلده كقشر السمك، وفي أسطورة أخرى أن الكواكب حينما اجتمعت في أول درجة من الحمل ظهر جنس البهائم، ثم لما اجتمعت في أول درجة من الجوزاء ظهر جنس الناس.. الخ، وجاء في الأساطير الهندية أن أول ما كان من ظهور الإنسان أن السماء هي الذكر والأرض الأنثى، وأنه مطرت السماء فقبلت الأرض ماءها بمنزلة قبول المرأة ماء الرجل في رحمها وأجلها الفلك بسرعة جرية ودورانه فيبدأ أول ما بدأ هذا النبات الشبيه بالإنسان الذي يسمى بيروح، ثم ألح عليه الفلك بدورانه حتى أفلح من منبته وأفاده حركة مكانته فصار إنساناً يسعى كما ترى، وفي كتاب الفرس أن الله خلق الخلق في ثلثمائة وستين يوماً ووضع ذلك على ازمنا الكاه انبار فخلق السماء... وخلق الإنسان في سبعين يوماً وسماه كيو مرث، وأنه كان في جبل يسمى كوشاه ولم يزل يعمل الخير والعبادة وكان في سياحته ثلاثين سنة ثم طعنه إبليس فقتله فسال من طعنته دمه وصار ثلاثة أثلاث، فثلث منه أخذته الشياطين وثلث أمر الله روشنك الملك أن يأخذه ويصونه، وثلث قبلته الأرض فصارت محفوظة أربعين سنة ثم أثبت الله منه نباتاً كهنبات الريباس وظهر في وسط ذلك النبات صورتان ملتفتان بورق ذلك النبات أحدهما ذكر والأخر أنثى واسم ذلك الذكر منها ميثي واسم الأنثى ميثسانه، وهناك أساطير أخرى عديدة منها من رأت أنه ثمرة الهواء والماء والنار واليابسة والجبال والأنهار والنجوم والبحر بما فيه من مياه وحيوان، والدواب المتولدة من الأرض وفيه النماء كما في النباتات... الخ: المقدسي، كتاب البدء والتاريخ، سبق ذكره، ج 2/ 74-95.

29 - أشار العديد من الباحثين إلى حقيقة هذا التطابق العبراني مع نصوص الأساطير السومرية بعد تحريفها بمقتضى ما يخدم العقيدة العبرانية، وهي غير منحصرة في قصة الخليفة أو خلق آدم وحواء، بل يتوسع الباحثون في أشكال متعددة من التطابقات تتجاوز قصة آدم وحواء، إلى الطوفان وقصة أيوب وغيرها العديد: صمويل كريم، من ألواح سومر، سبق ذكره: 239 - 249. و: فراس السواح، أساطير الأولين، سبق ذكره: 73 وما بعدها. و: سيد القمني، الأسطورة والتراث، سبق ذكره: 200 وما بعدها. و: صمويل نوح كريم - ديان ولكشتاين، الأسطورة السومرية - إنانا - ارشيكال - ديموزي، ترجمة وتقديم: شاكر الحاج مخلف، دار تموز - دمشق - سورية، ط 1، 2016: 84-95.

30 - ابن الكلبي، كتاب الأصنام، سبق ذكره: 19. و: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، سبق ذكره: مج 1/ ج 2/ 126-127. وهناك روايات أخرى حول هذه الأسطورة، للتعلم أكثر راجع: ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ط 1، 2001: ج 1/ 174-175 و: البخاري، صحيح البخاري، دار السلام، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1997: ب 2/ ج 4859 ح 4862/ 1042

31 - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، سبق ذكره: مج 1/ ج 2/ 126-127

32 - الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهب، مكتبة الأسد، ط 1، 2003: 198

العزى من العزير، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، كان أهل قريش يعظمونها. أما مناة، فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة³³، وهنّ بنات الله، وكان لها منحراً (مذبح) وينحرون فيه هداياها (قرايين) يقال له الغبب، ولما كان الفتح الإسلامي أرسل النبي محمد خالد بن الوليد للقضاء عليها، «وقد كانت العزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن النخلة. فلما فتح النبي مكة بعث خالد بن الوليد، فقال له: إيت بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سمرات، فاعضد الأولى! فأتاها فعضدها. ثم جاء إليه (عليه السلام) قال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا. قال: فاعضد الثانية! فأتاها فعضدها. ثم أتى النبي (عليه السلام) فقال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا. قال: فاعضد الثالثة! فأتاها. فإذا هو بحبشية نافشة شعرها (وفي حكاية أخرى امرأة نافشة شعرها)، واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها، وخلفها دُبَيَّْةُ [بن حرمي الشيباني ثم] السلمي، وكان سادنها. ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حُمَةٌ، ثم عضد الشجرة³⁴، وقتل دبية السادن، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره. فقال: تلك العزى، ولا عزى بعدها للعرب! أما إنها لن تعبد بعد اليوم»³⁵ وفي حكاية أخرى جاء فيها «فلما كسرت الأصنام كسراً خرج من أحدهما امرأة سوداء شمطاء، تخمش وجهها، عريانة، ناشرة الشعر، تدعو بالويل، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فقال: تلك نائلة قد أيست أن تعبد ببلادكم أبداً»³⁶.

إنّ مجموع تلك الأساطير تؤكد لنا أنّ العرب كانوا قد عرفوا عبادة الآلهة الأم، وتمثلوها بأصنام وجعلوا لها النصب، ولكنهم ضيعوا أصلها ومنشأها وفقدوا أسطورتها الأولية، فحينما عجزوا عن ذلك وضعوا هذه الحكايات الأسطورية عنها³⁷، التي لاشك ليست أساطيرها الأولى المرتبطة بوظيفتها الدينية في عصر سيادة الإلهة الأم، ولكنهم ساروا على عبادتها وتقديم قرايينها الخاصة، ويذكر أنّ تلك القرايين كانت قرايين زراعية كالتى كانت تقدم إلى ذي الخصلة الذي كان صنماً أنثى؛ أي إلهة، حتى قيل فيها إنّ آليات النساء ستضطرب وترتج على ذي الخصلة³⁸، وكانوا «يكسونها القلائد، ويهدون لها الشعير والحنطة، ويصبون عليها اللبن، ويذبون لها، ويعلقون عليها بيض النعام»³⁹، وهذه القرايين هي قرايين المجتمعات الزراعية، فالعربي الحجازي كان قدما يبحث عن ربّه في الأودية الخصبة وينسج الأساطير، شأنه في ذلك شأن البابليين وجميع الأمم السامية في أول

33 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض- المملكة العربية السعودية، ط2، 1999: ج7/455-457

34 - عبّد العرب الشجر وكانوا يعتقدون أنّ قوة إلهية حلّت في المعبود، وعبّدوا عتتر على أنّه إلهة أنثى إلهة الخصب والإنتاج ممثلة في النخل والماء كما وردت في النقوش، وكانت تدعى في البابلية منتجة الخضرة والنبات، وقرنت بعبادة النخل والأشجار عند الساميين منذ قديم الزمان، حتى كانوا يطلقون اسمها على كل صنم مصنوع من خشب. وكذلك الأمر مع العزى، وذات أنواط، وكان أهل نجران قبل اعتناقهم المسيحية يعبدون نخلة طويلة لها عيد في كل سنة: أحمد محمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، سبق ذكره: 428-431

35 - ابن الكلبي، كتاب الأصنام، سبق ذكره: 20-27

36 - الأزرقى، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، سبق ذكره: 194

37 - محمود سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا عند العرب- بحث مسهب في المعتقدات والأساطير العربية قبل الإسلام، دار النهار، بيروت، ط1، 1955: 67

38 - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، سبق ذكره: 271-273

39 - الأزرقى، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، سبق ذكره: 196

نشأتهم⁴⁰ التي كانت تنتسب إلى خط الأم، وتعبد الآلهة المؤنثة، التي لم تتعرف بعد على الآلهة الذكورية التي ترضى لعبادها وتسكن أرواحها، بعد أن تصعد إليها روائح الشواء والدم والقربان الحيوانية.

إنَّ هذه المجموعة من الآلهة (اللات، والعزى، ومناة) -كانت اللات لثقيف بالطائف، والعزى لقريش وبني كنانة، ومناة للأوس والخزرج⁴¹ - ماهي إلا تجسيد للآلهة الأم التي كانت تعبد في مجتمعات السومريين وفي وادي الرافدين، وربما تكون اللات هي الشمس نفسها، فأسماء الآلهة المركبة من (ذات) مثل ذات أنواط، وذات حميم، وذات بعدن، وأسماء أخرى كلها مؤنثة، ألقاب لإلهة الشمس العربية العظيمة، وهناك إله القمر سين / ود، وإله الزهرة عشتار / عثر، وهذه الشخصيات الثلاثية هي الشخصيات الإلهية الموجودة في عبادة عرب الجزيرة القدماء، وهذه المجموعة معروفة عند الساميين قديماً؛ إذ إنها الدعامة الأساسية للعقيدة، فهذا الثالث (القمر / سين، الشمس / اللات، الزهرة / عشتار) أو ظاهرة التثليث هي ظاهرة سامية عامة، فقد كان أهل عاد وهم من العرب البائدة يعبدون ثالوثاً من أصنام هي (صمود، وصداء، والهباء) ونلاحظ أنَّ هذه الأصنام إناث، ونلاحظ اقترابهنَّ من ثالوث العرب قبل الإسلام، فاللات هي الشمس، وهي الأم العظمى للآلهة، وهي في الديانة العربية تعدُّ أمًّا وإلهة أم، وهذه الفكرة مصدرها أسطورة الأسرة، فالهة الشمس العربية القديمة تقابل عند الساميين الشماليين الإلهة أم الزهراء المسماة عشتار أو عشترت ومن التسمية أم عشتار حامية النساء وإلهة الولادة والحمل⁴².

ومن الواضح جداً أنَّ العرب قد عرفوا هذه الآلهة الإناث وعبدوها كما هو حال المجتمعات السامية التي عبدت الآلهة الإناث ومثلتها بالأصنام والتمائيل ووضعت لها المعابد، إذا ما عرفنا أنَّ اللات كلمة قديمة وقد وردت في الأدب البابلي الذي يرجع عصره إلى ثلاثة آلاف عام تقريباً، وهي إلهة من آلهة البابليين، وكانت من بنات الأرباب وأخواتها، وهي: مامناتو وعشتار، وتظهر اللات في قصيدة فروسية ازدوبار كالمملكة تحكم وتأمّر، ثم أخذها النبطيون وسموها ربة البيت، ويظهر أنَّ ذا شرى سموه ربَّ البيت وربما يكون ذو الشرى شكلاً من أشكال اللات، واللات هي إلهة الشمس⁴³، وكذلك الحال بالنسبة إلى العزى (التي ربما هي عزيزو عند أهل تدمر، أي الزهرة)⁴⁴، فهي أيضاً من الأسماء البابلية القديمة، وأنَّ العرب قد عبدوا العزى على أنَّها الزهرة، وكانت الأسطورة ترى أنَّ الإله يتصيف باللات لبرد الطائف، ويشتو بالعزى لحر تهامة⁴⁵، إنَّ اللات تمثل الحرارة والدفع، والعزى تمثل الشتاء البرودة والسكون، ولاشك أنَّ هاتين الإلهتين تمثلان دورة أسطورة عشتار

40 - محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، سبق ذكره: 101-102

41 - أبو الفداء، كتاب المختصر في أخبار البشر، سبق ذكره: ج/ 98

42 - لديتلف نيلسن، الديانة العربية القديمة، ضمن كتاب التاريخ العربي القديم، تأليف ديتلف نيلسن، وفرترز هومل، وادولف جرومان، ترجمه: فؤاد حسنين علي، وراجع الترجمة: زكي محمد حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة- مصر، 1958: 178-219

43 - محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، سبق ذكره: 117-118

44 - أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من أوغاريت (رأس الشمرا)، دار النهار، بيروت- لبنان، 1980: 56

45 - الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، سبق ذكره: 198.

ابنة إله القمر سين، وأما نكال التي كانت تهبط إلى العالم السفلي في الشتاء لتخصب من ديموزي، فيحل البرد والجفاف والركود، وتعود في الربيع ليحل الخصب والنماء وتدب الحياة من جديد⁴⁶، ولهذا تساوقت الأسطورة العربية مع الأسطورة الرافدينية تماماً في عملية إعادة إنتاج للأسطورة الرافدينية، وهي في آخر الأمر لا تمثل سوى أسطورة واحدة تؤمن بها جميع المجتمعات السامية، ولكنها حين تنتقل من مجتمع مصر إلى آخر تكتسب دلالات أخرى وأسماء محرفة وتختفي بعض الملامح وتضاف أخرى، ولكن أصل الأسطورة يبقى كما هو مهما تبدلت الظروف. أما مناة فهي ماماتو البابلية، وهي بنت الإله عند العرب، وهي تمثل الموت كما مثلته عند البابليين⁴⁷.

لقد مثلت تلك الآلهة عصور سيادة الأم ودورها الكبير في الحياة العربية، فهي رحم الحياة والولادة والوجود، وقدسوها وتمثلوها بمجموعة من الأصنام والأوثان التي تقربوا إليها بقربانهم الزراعية في بداية الأمر، ولكن مع مرور الأزمان بدأت تلك العبادات والمعتقدات بالتداخل والتحول حتى قضى عليها العصر الذكوري، ولذلك نجد في الحكاية الإسلامية أن العزى أو مناة حينما دمرها خالد بن الوليد ظهرت على شكل امرأة عجوز شمطاء قيل حبشية سوداء تلطم وجهها وهي عارية، وفي هذا إشارة إلى نهاية العصر الأموي الذي تم القضاء عليه، فإذا كان لدى العرب بقايا في معتقداتهم القديمة أن عزى ومناة واللات هن بنات الله وهن إناث للخصب، والجمال، والحب، والنماء، والعتاء، خاطبتهم الحكاية الإسلامية بالمنطق الأسطوري نفسه ولكن بدلالة مناقضة تماماً، لتتحول تلك الفتاة (الزهرة/ عشتار/ عثر) أو اللات/ الأم/ الجمال، إلى عجوز شمطاء سوداء عارية وقد آيست أن تعبد ثانية، وهو إعلان القطيعة والإنهاء لذلك العصر الأموي القديم⁴⁸، كما أعلن عنه في صراع مردوخ وتعامت، وجلجامش وعشتار.

8- أساف ونائلة.. من الفضيلة إلى الخطيئة

هناك العديد من المؤشرات التاريخية التي وردت في النصوص السردية الأسطورية العربية، فضلاً عن النقوش والآثار ونتائج الحفريات، تشير إلى أن العرب كانوا يعبدون هبل الذي هو إله لا أصل له في العربية، وإنما جاء من الفينيقي وكان عندهم هبعل، الذي يُحتمل أن يكون هو بعل نفسه عند الساميين، ومعناه السيد، والهاء في العبري ال التعريف مثل ال العربية، ولم يكن معروفاً قبل عصر الآشوريين والكلدانيين، وهو إله الخصوبة وكان معروفاً عند العرب من أعظم أصنام قريش، ونصب على البئر في بطن مكة، وإقامته هذه على بئر الماء مع ما معروف من تقديس العرب للماء، ربما يدل على علاقة هبل بالخصب والرزق في عقيدة

46 - فاضل عبد الواحد علي، عشتار ومأساة تموز، سبق ذكره: 43- 65

47 - محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، سبق ذكره: 125- 129

48 - نود الإشارة هنا إلى أن جميع النصوص الدينية الواردة عن الكتب المقدسة أو ما جاء عن الرسول أو عن الصحابة أو التابعين لا ننظر إليها إلا بوصفها معطى ثقافياً، وأنها نصوص أنتجت ثقافياً داخل حاضنة اجتماعية مرتبطة بشرائعها التاريخية والثقافية والسياسية والدينية الراهنة، ونحن لا نهتم بها بوصفها نصوصاً دينية ولا نقدح بصحتها كما لا نحاول إثبات ذلك، وإنما نقصر على كونها خطاباً ثقافياً شكلياً وتشكل سردياً عبر أجيال من الزمن حمل لنا عبر مركباته اللغوية مرجعيات ثقافية نسعى لاستخلاصها وأخذ ما يسعف مقارباتنا منه بالقدر الذي يخدم هدف البحث.

العرب⁴⁹، وكانوا يطوفون بالبيت (الكعبة) وهم عراة⁵⁰ وجاء في وصف طواف العريان «يبدأ بأساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعا، استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه»⁵¹، ونلاحظ أن ابتداء الطقس كان بأساف، ومن ثم الحجر الأسود، ومن ثم نائلة، ولما جاء الإسلام حرّم ذلك الطقس ويقال حين نزلت سورة التوبة. وكانت قريش قد ابتدعت فيما بعد (الحمس)، رأياً رأوه فأداروه بينهم وفرضوه على الحجيج كونهم سادة الكعبة وولاة البيت فوضعوا بعض الشروط ومنها أن من يأتي إلى الكعبة يلبس من لباس الحمس الذي تخصصه قريش، ومن لم يجد يطوف عارياً، ومن يأتي بثيابه، فإن عليه خلعها ويطوف عارياً أيضاً، فكان أهل الحلّ يأتون حجاجاً وعماراً فإذا دخلوا الحرم وضعوا أزوادهم التي جاءوا بها والتمسوا ثياباً من ثياب الحرم، وإما عارية فطافوا وهم عراة، وكذلك النساء إلا أن يضعنّ درعاً تطرحه عليها⁵²، وكانوا يقولون وجدنا آباءنا عليها⁵³؛ أي الطواف عراة من الرجال والنساء.

ولاشك أن لظاهرة طواف العرب القدماء عراة بيت الله، تقف خلفه مجموعة ميثيات تضافرت لتشكّل في عقلية العربي الأسطورية قناعة، وإيمان، وعقيدة، فهم يطوفون ببيت الرحم كما كانوا يسمون مكة (مقة)، ويتبركون بالإله هبل الذي هو رمز الخصوبة والرزق، وهم يقفون في أماكن مقدسة امتلأت بها ذكرتهم الميثافيزيقية بحكايات قديمة عن مكان اللقاء بين آدم وحواء، آدم الذكورة وحواء الأنوثة، اللذين تزوجا في هذا المكان بعد أن التقيا على جبل عرفات، وهناك أسطورة أخرى تكمل تشكيلات العقيدة الدينية بصورة لا يمكن معها مخالفة تلك الموارد والمعتقدات، وهذه الأسطورة هي أسطورة أساف ونائلة:

تقول الأسطورة: إن رجلاً وامرأة من جرهم، أساف بن بغي (أو بن عمرو) ونائلة بنت ديك (أو بنت سهيل)، كانا قد أتيا الكعبة وزنيا فيها فمُسخا حجرين، فاتخذوهما يعبدونهما، وكانوا يذبحون عندهما ويحلقون رؤوسهم عندهما إذا نسكوا، ويقال كان أهل الجاهلية يَمرون بأساف ونائلة ويتمسحون بهما، وينحرون عندهما⁵⁴، وكان الطائف إذا طاف بالبيت يبدأ بأساف فيستلمه، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها، وأن قصي بن كلاب حوّلها من الكعبة ووضعها على الصفا والمروة⁵⁵.

49 - محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، سبق ذكره: 114-117

50 - سعد عبود سمار، المعتقدات الميثودينية عند العرب قبل الإسلام، سبق ذكره: 74-75

51 - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، سبق ذكره: 358

52 - ابن إسحاق، السيرة النبوية، تحقيق: أحمد فريد المزدي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2: ج1/148-149. و: الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، سبق ذكره: 273

53 - المصدر نفسه: 144

54 - السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، دت.: ج1/172

55 - الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، سبق ذكره: 189-195. و: ابن هشام، السيرة النبوية: تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط3، 1990: ج1/99-100

إنَّ مجموع هذه الأساطير والحكايات المجتمعة في ذهن العربي القديم، مع ما اعتقده في سالف الأزمان من عبادته للآلهة الأم وطقوس العبادة الجنسية، تدفعنا إلى القول إنَّ الحج لدى عرب الجزيرة القدماء (وليس قبيل الإسلام)، كان طقساً من طقوس العبادة الجنسية المرتبطة بنظام الأمومة السائد في جميع المجتمعات، إذا ما عرفنا أنَّ أساف ونائلة كانا يتعاشقان في اليمن، ولم تكن ممارستهما للجنس داخل الكعبة هي وليدة اندفاع عاطفي أو رغبة جنسية لم يتمكننا من كبتها، وإنما كانت بتصورهما طقساً من طقوس العبادة الدينية، بدلالة أنَّهما تحولا إلى أسطورة عربية خالصة، والأسطورة في أبسط معانيها لا تُعنى بالخاص والفردى، وإنما تعنى بتجربة الإنسان الاجتماعية⁵⁶، ولو لم تكن حكاية أساف ونائلة قد مثلت وعياً جماعياً، وطقساً عاماً لما بقي لها من أثر، وربما كان مجيئهما إلى الكعبة هو طلباً للإخصاب أو للإنجاب من خلال التدخل الغيبي لقوى الإلهة الأم داخل البيت المقدس، ومسح الحجر الأسود الذي يبعث الخصب لدى المرأة الطامث، وما يعزز هذا الاعتقاد أنَّ أساف/ الذكر/ القضيبى قد وضع عند الحجر الأسود⁵⁷، لتتواشج العلاقة بين رمز الذكورة/ أساف/ قضيب، ورمز الخصب/ الحجر الأسود/ الطمث، فالإنسان العربي البدائي لم يكن ليهتدي إلى معرفة الفرق بين الطمث والمني، ولاشك أنَّه من خلال الافتراض الطبيعي للولادة ربما ظن أنَّ بالتقاء الطمث والمني تحصل الولادة والخصب وتمنح الديمومة للحياة، وما يعزز هذا الرأي هو أنَّ العرب وجدوا هذين الصنمين، وكانت قد تلاشت أسطورتها تماماً فما كان منهم وهم أصحاب العقلية الأسطورية، إلا أن ينسجوا أسطورة تعلق وجودهما بجوار الكعبة⁵⁸، ومن الملاحظ أنَّ هذين الصنمين كانا قد نحتا نحتاً يبرز الأعضاء الجنسية لهما. ولهذا كان العرب فيما بعد يضعون عليهما الثياب كلما بليت أخلفوا لهما ثياباً جدد⁵⁹، فالطواف عراة هو بلا شك طقس جنساني بامتياز كانت تمارس فيه أفعال البغاء المقدس، وما أساف ونائلة إلا أمودج بقي محتفظاً بتاريخه القديم، ولكن شوَّهت ملامحه الأسطورية وتحولت دلالاته ودخل منطقة الخطيئة والتحریم بعد هيمنة النظام الأبوي الذكوري على المنطقة، ولذلك نجد أنَّ العرب كانوا إلى عهد قريب من الإسلام يطوفون ويتمسحون ويتبركون بهما، ويقدمون لهما القرابين، بل إنَّ قصي بن كلاب أخرجهما من بطن الكعبة ووضع أحدهما على جبل الصفا، والآخر على جبل المروة، وأصبح العربي يسعى بينهما في طقس من طقوس الاحتفال

56 - إرنست كاسيرر، الدولة والأسطورة، سبق ذكره: 72

57 - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، سبق ذكره: ج/266/6

58 - لقد أثار أسطورة أساف ونائلة وحتى الأساطير الأخرى المتعلقة باللات والعزى ومناة والزهرة (عنتر) وغيرها مجموعة من الإشكاليات والمواقف المتحيرة تجاهها، منذ ابن الكلبي حتى المتأخرين من الباحثين والمؤرخين المحدثين أمثال جواد علي، وجورجي زيدان، ومحمد عبد المعين خان، ومحمود سليم الحوت وغيرهم، إذ يرون أنَّ هذه الأصنام إنما استوردت من الأمم المجاورة، أو أنَّ العرب حاروا في وجود هذه الأصنام فاخترعوا لها أساطير، أو أنَّ عمرو ابن لحي أمرهم بعبادتها، أو جنحوا إلى تأويل مبتكر لتلك الأساطير والأصنام المعبودة بأنها تمثل ثالوثاً كان شائعاً عند أغلب المجتمعات السامية كما في (الشمس، والقمر، والزهرة- اللات، والمقة، وعنتر): حسين قاسم العزيز، دراسات عن أساطير عرب شبه الجزيرة قبل الإسلام، سبق ذكره: 231-298. وفي اعتقادنا أنَّ هذه الأصنام تعرضت أساطيرها لموجات عديدة من التشويه والتحويلات الدينية والثقافية حتى بدأت أساطيرها الأولى بالتلاشي والضياع بعد أن فقدت محتواها الأول، ومع مرور الزمن لم يجد العرب أمامهم سوى أن يطوروا معان جديدة لتلك الأساطير تتسجم وعقيدتهم السائدة، وهو ما تطلب منهم أن يضعوا بإزائها الأساطير الجديدة، ولذلك نجدها تتحول من مكان إلى آخر، كما أنَّ وجود تلك الأصنام بهيئاتها وأماكنها لا ينسجم والأسطورة المطروحة في حينها، كما في أساف ونائلة، أو ذي الخصلة، أو عنتر، وهذا ما يرجح الاعتقاد أنَّ هذه الأصنام تعود إلى أزمان غابرة فقدت محتواها ولكنها بقيت شاخصة ومقدسة دون المعرفة الحقيقية بأصلها، وبمرور الزمن حيك حولها الأساطير الجديدة.

59 - محمود سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا عند العرب، سبق ذكره: 55

الديني، وهذا يدل صراحة على أنّهما لم يقرّفاً فعلاً شنيعاً محرماً وخطيئةً، بل كان ممارسة عبادية طقوسية ترتبط بتاريخ العبادة الأمومية وسيادة الإلهة الأم.

يبدو أنّ ما حدث هو انفصال السردية عن الأسطورة، فالمفترض أنّ الأسطورة تتضمن سردية هي الطقس الذي يتصل بتفاصيل الأسطورة ويعبر عن محتواها حسيّاً، وما حدث تاريخياً أنّ التغير الثقافي الناشئ عن هجرة الأسطورة تطلّب عزل الأسطورة عن سرديتها، على أساس أنّ البنية الثقافية الجديدة لها معتقداتها التي لا تسوغ الإبقاء على الأسطورة في شكلها القديم، لكن ذلك لا يمنع من بقاء سرديتها؛ لأنها لا تتعارض مع شيء في الثقافة الجديدة. فسردية الطقس يمكن أن تبقى مع بعض التعديلات، لكن أسطورة الطقس الجنسي لم تستسيغها الثقافة العربية فعمدت إلى تحريفها بل وتخطئتها على أنّ أساف وناثلة وقعا في الخطيئة (العلاقة الجنسية) الأمر الذي يعني أنّ الثقافة العربية لم تعارض الثقافة الرافدينية فيما يخص هذا على نحو مطلق؛ إذ إنّها- الثقافة العربية- مع تجريم الفعل الجنسي أبقت على تقديس أساف وناثلة ووضعتهم في أماكن مقدسة، ليجمعا التقديس والتدنيس معاً.

حتى حينما جاء التحريم في الدين الإسلامي، فإنّ نصوص التحريم القرآنية تكون مفتوحة ببناء {يا بني آدم} وهي إشارة تخاطب ذهنية العربي المشبعة بالأساطير المرتبطة بقاء آدم وحواء على جبل عرفات وتزواجهما وإنشاء الخليقة بعد أن أخذوا يخرصان عليهما من ورق الجنة، مع التعديل المستمر للسرديات المرافقة، ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الحجر الأسود لم يكن أسود بالأصل، وإنما كان ياقوتة⁶⁰ من يواقيت الجنة «كان الحجر من ياقوت الجنة فمسحه المشركون فاسود من مسحهم إياه (...) وعن وهب بن عقبة عن عطية العوفي عن ابن عباس قال: إنّ الحجر الأسود من حجارة الجنة، كان أشدّ بياضاً من اللبن فاسود من مسحه بنو آدم من ذنوبهم»⁶¹، والحقيقة أنّ هذا السبب في تحول لون حجر الجنة من البياض الشديد الأشد من بياض اللبن إلى الأسود القاني، لا يخاطب إلا المجتمعات الغارقة بالأساطير والميتافيزيقيات والميثولوجيا، ليؤمنوا أنّ الذنوب تسود حجراً، والحقيقة فيما يبدو أنّ النساء كنّ عند طوافهنّ بالكعبة يمسخنّ بالحجر المقدس ويضعن عليه من دم الطمث⁶²، وهن يعتقدن أنّ ذلك يزيد الخصوبة عند المرأة، على نحو ما رأينا في طقوس البغاء المقدس عند المجتمعات والعبادة القضيبية⁶³ التي كانوا فيها يدهنون الرمز القضيبى بدهان أحمر أو نبيذ، فالحيض لم يكن مكروهاً أو مستنجساً أو علامة من علامات الضعف، على العكس تماماً لقد كان سبباً من

60 - الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: محمد خير الله طعمة الحلبي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، 5، 2008: 21

61 - ابن إسحاق، السيرة النبوية، سبق ذكره: ج1: 143

62 - سيد القمني، الأسطورة والتراث، سبق ذكره: 163

63 - يذكر الدكتور جواد علي في كتابه المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: أنّ المعابد القديمة كالتي كانت في اليمن لا تضاهيها المعابد التي أقيمت في مواضع من جزيرة العرب، فقد اتخذت لها الحجارة المقطعة من الصخور في بناء الجدر والأرض وفي الأعمدة، وتفنوا في تزيين الجدران والأعمدة. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، سبق ذكره: ج6: 409 وهذا النمط من البناء هو ما كان شائعاً عند المجتمعات السامية التي تكون فيها المعابد تقوم الأعمدة في باحاتها، وهو الفن العمراني الذي تطور عن العبادة القضيبية في وقت سابق وتقدم حتى أصبح شكلاً من أشكال فنون النحت والعمران في الهياكل والمعابد الدينية.

أسباب الخصب؛ فقد أشارت الدراسات إلى أن القدماء اعتقدوا أن الدم هو الذي تكمن فيه الحياة⁶⁴، فضلاً عن تناسبه مع دورة أيام الشهر القمري، والعلاقة بين القمر والأنثى، وبين الولادة والدورة الشهرية؛ وذلك بلا شك قبل أن تتحول الأنظمة الدينية والسياسية التي استبعدت المرأة الحائض واعتبرتها نجساً وأذى، والدليل على أن العرب لم يميزوا بين المنى والدم والخصوبة والإنجاب وسر هذه العملية بأكملها، أنهم سألوا الرسول محمد بعد مجيء الإسلام وجاءت الآية: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ} ليبدأ عصر اعتزال النساء وإبعادهنَّ وعدهنَّ نجاسة حتى يطهرنَّ⁶⁵، وتوليف الأدبيات حول التحريم واللعنة التي حلت بالنساء، وتشكيل ميثلوجيا الذنب الذي يحمل المرأة عبئاً أبدياً يرتسم في شعور المرأة بذاتها الجسدية الذي صنعتها لها ثقافة القمع والتحريم والأبوية⁶⁶، التي لاشك قد انبثقت أولى موجهاتها من النص التوراتي الذي سجل في أعرافه هامشية المرأة وتبعيتها ونجاستها وإخضاعها لمغامرات الجنس والمتعة وإنجاب البنين⁶⁷.

9- الحية/ حواء متلازمة الإغواء والأنوثة

تشير الدراسات الأركيولوجية إلى أن إحدى بعثات التنقيب الأمريكية الأثرية قد نقتت في مدينة (تيب حورا) في أرض الكلدانيين في مدينة أور، التي يظن أنها مسقط رأس إبراهيم الخليل، فقد عثر فيها على قطعة من الفخار منقوش عليها صورة رجل وامرأة وقد أحنى الحزن ظهريهما، وتقف وراءهما أفعى أكبر من كل منهما تحاول الانقضاض عليهما، وقد ذهبوا إلى أن تلك الصورة تمثل قصة آدم وحواء؛ ذلك أن فحص هذا الأثر كشف أن نحاتها كان حياً قبل أن تُورد التوراة قصتي الخليقة، وآدم وحواء بألفي سنة⁶⁸.

قد يقطع هذا الاكتشاف بيقينية القصة التوراتية في خلق آدم وحواء، وإغواء الحية؛ لأنها سابقة لظهور التوراة بألفي سنة تقريباً، ولكن هناك مشكلة في فهم الصورة المنقوشة على تلك الفخارية، وهذا إنما يعود إلى مجموعة الإسقاطات التي نحاكم بها بعض النصوص أو المعارف أو المسائل التاريخية؛ لأننا لو دققنا في الصورة جيداً لفهمنا أن هذا النقش يمثل أسطورة سومرية قديمة كانت تعتقد أن الحية هي رمز للخصب والعطاء والقوة، وهي في وقوفها خلف المرأة لا تعني أبداً أنها تتساق مع القصة التوراتية، أو تثبتها، بل العكس تماماً فهي ليست رمزاً للإغواء في هذه المنقوشة، وإنما هي رمز للخصب والحياة والديمومة، وهي إنما تقف خلف المرأة لأن المرأة في اعتقاد السومريين هي الرحم الأول الواهب للحياة والولادة، فالمرأة تفتح يديها واهبة الحياة للبشر / الرجل / الإنسان ومن خلفها رمز الخصوبة، وليست حالها هذه كما فسرت على أنها رمز الإغواء

64 - فرانسواز ايريتيه، ذكورة وأنوثة، سبق ذكره: 133-134

65 - سيد القمني، الأسطورة والتراث، سبق ذكره: 161-163

66 - هالة كمال وآية سامي، النسوية والجنسانية، ترجمة: عايدة سيف الدولة، مؤسسة المرأة والذاكرة، مصر، ط1، 2016: 49-50

67 - بول فريشاور، الجنس في العالم القديم، سبق ذكره: 253

68 - عبد الله حسين، تاريخ ما قبل التاريخ، سبق ذكره: 96-97

والشر، وأنَّ وقوف الحية خلفها تدلُّ على اقترانها بخداع الحية وحيلها، وأنَّها تقدم إلى الرجل شيئاً أو ثمرة هي طعم السقوط والخطيئة⁶⁹.

لقد ارتبطت الحية منذ أقدم العصور ولدى جميع المجتمعات بالقمر ودورته القمرية الشهرية، ومنهم من اعتقد أنَّ عدد أضلاعها يعادل أيام الشهر القمري، وبقيت رمزيها لدى معظم شعوب العالم ممثلة، وهي تحمل الهلال على رأسها، وكانت ثمة احتفالات وطقوس تقام لدى بعض الشعوب للآلهة الأفعى في اليوم الأول لظهور القمر، وانتقلت تلك التصورات الميثولوجية إلى الربط بين المرأة والأفعى؛ فالمرأة في أصلها كانت أفعى، والأفعى كانت امرأة، ولدى بعض القبائل أنَّ الذعر الذي أحلَّه الطوفان الكبير بالبشر قد أعاد المخلوقات إلى أصولها، فتحول الرجال إلى قروء، وتحولت النساء إلى أفاعي. وكانت عشتار لدى معظم ثقافات الشرق الأدنى مصحوبة بالأفعى في كثير من الأعمال التشكيلية التي تصورها، فعشتار تلبس تاجاً على هيئة أفعى، والإناء الفخاري الذي ينوب عن الأم الكبرى تلتف عليه الأفعى، وهكذا فإنَّ الحية تشير في جميع الثقافات القديمة إلى رمز الإخصاب والحياة والتجدد، فنجدها مقترنة بالقمر، وبالأشجار والقمح والمحاصيل، وبالمرأة، ولذلك اقترنت بعشتار كونها تمثل قوى الإخصاب⁷⁰.

ولكن اقترانها بالمرأة في الميثولوجيا العربية اتخذ شكلاً آخر بعدما وظفت الحية في أسطورة الخلق والتكوين منتحلة شخصية إبليس أو تماهت معه، وأصبحت معاونته الأولى في تلك الخطيئة الكبرى، ومنذ ذلك الحين أصبحت الحية رمز الشر والإغواء والتضليل، فهي ترتبط بالمرأة، حسب اعتقادهم، ولكن ارتباطها سيكون من هذا الجانب الآثم، حتى ولدت تلك الأساطير القديمة تقاليد وتصورات عن الحية، واقترنت بالجان والشياطين وأصبح قتلها يعني التخلص من الشر، وعلى هذا دارت العديد من الحكايات والأساطير.

10- هاروت وماروت: صعود الزهرة/ هبوط الأنوثة

وعلى هذا الأساس الأسطوري والغزو البدوي الذكوري أخذت الأساطير تتبدل، والعقائد تتحور، وما استتبع ذلك من تحولات بنيوية في الطقوس والعادات والممارسات والحياة الاجتماعية؛ فالأسطورة التوراتية لم تبق على شيء من النظام الأمومي لم تقض عليه، وحاولت تغيير كل المفاهيم والقناعات والأنظمة من خلال وضع البديل، أو من خلال خلخلة الثابت وتقديم النموذج الذي تسنده الخلفية الأسطورية الدينية، فأسطورة قابيل وهابيل كانت النموذج الآخر والوسيلة الثانية للقضاء على دور النظام الأمومي وإنهاء وجوده، إذ تحكي الأسطورة قصة تقرب هابيل راعي الغنم من أبقار غنمه، وقابيل المزارع إلى الرب الإله من ثمار أرضه، فإنَّ الرَّبَّ الإله تقبل من هابيل الراعي ولم يتقبل من المزارع؛ لأنَّ النزعة البدوية لا ترغب في استمرار العقيدة الزراعية لما لها من ارتباط بالنظام الأمومي، وحينما انتقلت هذه الأسطورة إلى الثقافة العربية لم تهتم بشأن

69 - سيد القمني، الأسطورة والتراث، سبق ذكره: 204

70 - فراس السواح، لغز عشتار، سبق ذكره: 135-139

الراعي والمزارع والأدلوجة اليهودية، فكانت الحكاية العربية أن «تحرى هايل أجود غنمه وأجود طعامه فقربه، وتحرى قاين شرّ ماله وقربه»⁷¹ لأنّ الثقافة العربية أصبحت غير معنية بهذا الصراع العبراني بين الراعي والمزارع، فأخذت الأسطورة على متنها الحكائيّ دون التفاصيل الدقيقة المهمة بالنسبة إلى كتبة التوراة؛ لأنّ كل مجتمع يصنع أمودجه الأسطوري وفق أدلوجته وغاياته، وهنا في المجتمع العربي أصبح من المهم التركيز على صراع الخير والشر، العطاء والمنع، الكرم والبخل، الطيب والخبيث، فقدمت هذه الأسطورة على أن تكون فاعلة في رؤية القدماء للإنسان المزارع نظرة تسخط الرب الإله.

ولما كانت المرأة على هذه الشاكلة في بداية تكوينها، رمز الإغواء والانحراف وقوة الشد التي توقع بالرجل، فإنّ أسطورة أخرى ستؤسس وفقاً لهذه المعطيات العقائدية الجديدة، وستختفي ملامح أساطير قديمة وتبرز إلى الوجود أساطير منمذجة جديدة تنسجم والواقع الذكوري الجديد المشبع بالأساطير والعقائد التوراتية التي هي ليست سوى «نص ميثي مغلق له وظيفة استرجاعية وطقوسية مغلقة، نص يرتبط بالسلطة المعرفة وله وظيفة قمعية، ويظل شاهداً على تحول الميثولوجيا إلى أدلوجة تخدم تطلعات فئة معينة»⁷².

فالكواكب التي عرفها الإنسان العربي القديم منذ بداياته الأولى متوازياً بذلك مع ثقافة الساميين الدينية في المجتمعات المجاورة التي رأينا كيف ارتبطت بشكل محوري بنظام عبادة الإلهة الأم، ستتحول مرة أخرى مع بداية النظام الذكوري، وستظهر لنا أسطورة جديدة تمحو التصور القديم لعبادة الزهرة والقمر والشمس وتحلّ محلّها. ومنها أساطير الكواكب وعبادتها، فإذا كانت تلك العبادة ذات منشأ رافديني، وأنّ العرب قد عرفوا الكواكب وعبودها وسميت عندهم بالغرانيق العلا، فإنّ الهيمنة الثقافية الجديدة ستحاول أن تدسّ الأساطير الذكورية لقلب النظام الاجتماعي والديني والحياتي الأمومي، ومن ذلك أسطورة هاروت وماروت:

جاء في الأسطورة أنّ الملائكة سألوا الله كيف تجعل في الأرض من يفسد ويرتكب المعاصي، فجاء فيها: «فلما خلق آدم وتعاطت ذريته الفساد قالت الملائكة يا رب أهؤلاء الذين استخلفتهم في الأرض فأمرهم الله أن يختاروا من أفاضلهم ثلاثة يُنزلهم إلى الأرض ليحملوا الناس على الحق ففعلوا وقالوا جاءتهم امرأة، فافتنونا بها حتى شربوا الخمر وقتلوا النفس وسجدوا لغير الله سبحانه وعلموا المرأة الاسم الذي كانوا يصعدون به إلى السماء فصعدت حتى إذا كانت في السماء مسخت كوكباً، وهي هذه الزهرة قالوا وخير المكان من عذاب الدنيا والآخرة، فاختاروا عذاب الدنيا فيها معلقان بشعورهما في بئر بأرض بابل»⁷³ وفي نص آخر أنّ الملائكة قالت: «يا رب، كيف تدع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدم الحرام وينتهكون محارمك ويفسدون في الأرض! قال: إني قد ابتليتهم، فعل إن ابتليتكم بمثل الذي ابتليتهم به فعَلتم كالذي يفعلون. قالوا: لا. قال: فاختاروا من خياركم اثنين. فاختاروا هاروت وماروت. فقال لهما: اني مهبطكما إلى الأرض، وعاهد إيكما ألا تشركا ولا تزنيا

71 - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، سبق ذكره: ج/1/35

72 - تركي علي الربيعو، العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، سبق ذكره: 78

73 - المقدسي، كتاب البدء والتاريخ، سبق ذكره: ج/3/14

ولا تخونا. فاهبطا إلى الأرض وألقى عليهما الشبق، واهبطت لهما الزهرة في أحسن صورة امرأة، فتعرضت لهما، فراودها عن نفسها. فقالت إني على دين لا يصح لأحد أن يأتيني إلا من كان على مثله. قالا ومادينك؟ قالت: المجوسية. قالا: الشرك! هذا شيء لا نقر به. فمكثت عنهما ما شاء الله. ثم تعرضت لهما فراودها عن نفسها. فقالت: ما شئتما، غير أن لي زوجاً وأنا أكره أن يطلع على هذا مني فافتضح، فإن أقررهما لي بديني، وشرطتما لي أن تصعدا بي إلى السماء فعلت. فأقرا لها بدينها وأتياها فيما يريان، ثم صعدا بها إلى السماء. فلما انتهيا بها إلى السماء اختطفتهما وقطعت أجنحتهما، فوقعا خائفين نادمين يبكيان، وفي الأرض نبي يدعو بين الجمعتين، فإذا كان يوم الجمعة أجيب. فقالا لو أتينا فلانا فسألناه فطلب لنا التوبة! فأتياه، فقال: رحمكما الله. كيف يطلب أهل الأرض لأهل السماء! قالا: إننا قد ابتلينا. قال: إئتياي يوم الجمعة. فأتياه فقال: ما أحببت فيكما بشيء، إئتياي في الجمعة الثانية، فأتياه، فقال: اختارا، فقد خيرتما، إن أحببتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله...»⁷⁴. إن هذه الأسطورة قد وردت في أكثر من نص، وتعددت روايتها، ورويت بطرائق سردية متعددة، ولكن متنها الحكائي واحد، وخلاصته أن الملائكة سألو الله تعالى عن سبب فعل البشر للمعاصي، وهم قد أذروا بالرسول والكتب والأنبياء، وهم خير عباده، فقال الله لهم إنه قد ابتلاهم وأدخل في قلوبهم حب الشهوات، ولو أنزلتم أنتم الملائكة إلى الأرض وابتليتكم بما ابتلوا فيه لفعلتم فعلهم، فاختراروا أفضل الملائكة طاعة، فوقع الاختيار على أفضلهم هاروت وماروت، وحين أنزلا إلى الأرض تعرضت لهما فتاة حسناء وأغوتهما وارتكبا المعاصي، فصعدت هي إلى السماء ومُسخت نجماً أو جمرة وعلقوا هم في الأرض عقاباً لهما. أما النبي الذي يُذكر في بعض النصوص، فالراجح أنه نبي الله إدريس؛ لأن المصادر تذكر أنه «أول من خط بالقلم وفي زمانه قصة هاروت وماروت»⁷⁵.

ولو بدأنا بتحليل البنية الحكائية لهذا النص السردى لتبين لنا أن الأسطورة بنيت على حدث مركزي هو هبوط الملكين هاروت وماروت وصعود الزهرة، ولكن المبنى الحكائي جاء على ثلاثة مستويات: المستوى الأول هو المستوى التفسيري الذي يجيب عن سؤال لم يطرحه النص، وهو المتعلق بتساؤل الإنسان عن هذا الكوكب اللامع، فجاءت الإجابة وفق البنية الثقافية لذهنية السائل وهي الذهنية الميثية التي لا تتحرك خارج فضاء الأسطورة، ولا تستسيخ الإجابات السريعة والموجزة والبعيدة عن تصوراتها؛ لأن عقلية الإنسان العربي القديم هي عقلية أسطورية مستوعبة ومنتجة في آن واحد، والمستوى الثاني الذي عبرت عنه الحكاية هو المستوى التحذيري من الوقوع في الخطيئة؛ لأن الحكاية، كما يبدو، قد صيغت في عصر ظهور التابوهات والمحرمات وصناعة التابو، والمستوى الثالث هو المستوى النسقي المختفي ما وراء الحكاية، وهو المتعلق بالمرأة / الزهرة / الأنثى.

74 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، سبق ذكره: مج 1، ج 1: 357. ويذكر ابن كثير رواية أخرى، نصها: «قالوا: ربنا، نحن أطوع لك من بني آدم. قال الله تعالى للملائكة: هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض، فننظر كيف يعملان؟ قالوا: ربنا، هاروت وماروت. فاهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة عن الإشراف. فقالا: والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً. فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي. فقالا: لا والله لا نقتله أبداً. ثم ذهبت فرجعت بقدر من خمر تحمله، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر. فشربا فسكرا، فوقعا عليها، وقتلا الصبي. فلما أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً أبينماه على إلا قد فعلتماه حين سكرتما. فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاخترنا عذاب الدنيا» (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، سبق ذكره: مج 1/ ج 1/ 353).

لقد تعلق فعل الخطيئة بالمرأة منذ مفتتح الحكاية، إذ كان التحدي المشروط بين الربّ والملائكة يدور حول ارتكاب الخطيئة، بين الملائكة المنقطعين، وبين قوى الإغواء والشبقية، ولم تجد الحكاية تمثيلاً لهذه القوى بأجمعها غير المرأة، فكانت الزهرة هي المحرك الأول والعنصر الدافع بالسرد إلى حركته وتقدمه، وهي التي تندفع في كل مرة باتجاه الشخصيات (هاروت وماروت) ولكنهما لا يتحركان باتجاهها إلا إذا مارست فعل الإغواء، وبهذا تكون الزهرة/ المرأة هي المحرك لفعل الغريزة والشبقية والخطيئة، والرجل/ الملائكان/ الذكر هو المحافظ والمسيطر والقادر على الكبت والمقاومة ضد السقوط، (إنهما وريثا آدم العقل الحكيم المحصن ضد قوى الإغواء، وهي وريثة حواء الهشة المغوية)، ولكن نجد أنّ الزهرة كررت الفعل لأكثر من مرة ومع ذلك لم يستجيبا ولم يغيرا موقفيهما تجاه القوى المحركة والمحفزة/ المرأة، وهنا ستمارس المرأة دور الدهاء والحيلة والخديعة للإيقاع بالضحية، وهو تقديم الشراب، إذا ما علمنا أنّ الخمر كان مرموزاً له في أسطورة الخليقة العربية ذات المصدر التوراتي؛ لأنّ حواء حينما قدمت ثمرة الشجرة إلى آدم كانت تلك الثمرة من المسكرات (يقال إنّها من الكرمة أو العناب) ولذلك جاء التحريم عن الخمرة كونها مجمع الخبائث⁶⁷ التي ذهبت بقدرة آدم على المقاومة والقدرة العقلية، وإلا لما كان لآدم أن يقع ضحية فعل أنوثي ساذج، وهكذا فإنّ هذه الأسطورة تتساقق تماماً مع تلك الأسطورة الأولى، ويكون الشراب/ الخمر هو أداة المرأة التي تتماهى معه في ممارسة فعل الإغواء تجاه الرجل/ الذكر، وهكذا يقع الملائكان بالخطيئة.

ولا تكتفي الأسطورة بإيقاع الملائكين بخطيئة الإغواء، أو أن يكونا الضحيتين للشبق الجنسي، بل إمعاناً في جعل الزهرة/ المرأة سبباً لكل ما يمكن ارتكابه، إذ لا توجد بنية داخل الحكاية الأسطورية خالية الدلالة، وإمّا هي دلالات مختلة تكمن وراء الرمز والإشارة، وتراهن على المرجعية الميثية لدى العقلية العربية القديمة؛ فالشرطان الأولان كانا في غاية التركيز داخل البنية الحكائية، ولهذا نجد أنّ الحكاية مهما تعددت مبانها، فإنّها لا تستبعد هذين الشرطين، وهما الشرك، والقتل، كما وردا في نص الحكاية (ليس المهم خطيئة الشرك أو خطيئة القتل، ولكن المهم أن يكونا فعلين مرتين بالخطيئة) فإنّ الملائكين يقعان بهما أيضاً بسبب الفعل الأول شرب الخمر، وبهذا يكون مجمل ما خلقته المرأة/ الزهرة هو أنّها جعلت أفضل ملائكة السماء أكبر الخطائين على وجه الأرض، وهذا ما ستذيل به الحكاية في النهاية بأن يطلبوا العفو بتدخل أحد الأنبياء، ولكن حتى شفاعة الأنبياء لا ترجى لهما، وبهذا حققت الأسطورة فعل الامتثال الطبيعي للذهنية الميثية العربية المشبعة بتراكمات سسيوثقافية، لتعود به إلى القيم الراسخة نفسها في تراثه الأسطوري.

ولا تعدم هذه الأسطورة من أن تكون توليفة عربية منتقاة من الأساطير والخرافات اليهودية هي الأخرى، إذ يذكر فراس السواح، أننا «نعثر في الفلكلور اليهودي على قصة هبوط الملائكين إلى الأرض أحدهما يدعى عزازيل والآخر شمهازي؛ وذلك ليثبتا للخالق تفوق الملائكة على الإنسان في الأخلاق وفي طاعة الله تعالى، وأنّ الإنسان غير جدير بالدور الذي رسمه الله له. ولكن شمهازي ما لبث أن وقع في حبّ امرأة تدعى الزهرة

وطلب وصالها، ولكنها تمنعت واشترطت عليه أن يُطلعها على اسم الله الأعظم الخفي، ففعل ذلك. وما أن حازت على الاسم حتى استخدمت قوته في الصعود إلى السماء قبل أن تفي بوعدا لشمهازي، ولكن الله أوقفها بين أفلاك الأجرام السماوية السيارة، وحولها إلى الجرم المعروف بـكوكب الزهرة أو كوكب فينوس»⁷⁷.

ومن البين أن اليهود كانوا يمثلون مصدراً تاريخياً ضخماً بالنسبة إلى عرب الجزيرة، بل لا نجد مبالغة إذا ما قلنا؛ إنهم يمثلون مصدراً من أهم مصادر المعرفة التي استقى منها العرب العديد من سردياتهم وأساطيرهم ومعارفهم المختلفة، واستمر هذا الحال حتى بعد مجيء الإسلام؛ إذ لا نجد غضاضة لدى المسلمين بالرجوع إلى التراث الحضاري الكبير الذي خلفه اليهود للبحث عن الإجابات للعديد من الأسئلة المطروحة حينها، وخاصة فيما يتعلق بالأنبياء وقصصهم، بل تذكر كتب التاريخ أن عرب مكة كانوا يراجعون اليهود للتأكد من صدق دعوة النبي محمد، بعدما سمعوا القرآن وقصص الأنبياء وبعض الأخبار؛ ذلك أن «العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والامية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم. ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومُعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدّثان والملاحم وأمثال ذلك؛ وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم. فامتلات التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل. وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات. وأصلها كما قلناه عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية. ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملّة، فتلقيت بالقبول يومئذ»⁷⁸.

ونجد من الإشارات المهمة عن قصة هاروت وماروت ما يذكره ابن خلدون في تاريخه عن أخبار ملوك بابل من النبط ومن السريانيين، إذ يقول: «وهذا غاية ما أدى إليه البحث من أخبارهم وأنسابهم، وكان من هؤلاء والكلدانين دين الصابئة وهو عبادة الكواكب واستجلاب روحانيتها. ويذكر أنهم كانوا لذلك أهل عناية بأرصاد الكواكب، ومعرفة طبائعها، وخلص المولدات، وما يشابه ذلك من علوم النجوم والطلسمات والسحر، وأنهم نهجوا ذلك لأهل الربع الغربي من الأرض. وقد يشهد لذلك من قرأ: وما أنزل على المملكين بكسر اللام، مشيراً إلى أن هاروت وماروت من ملوك السريانيين، وهم أول ملوك بابل..»⁷⁹، وهذا يعني أن الحكاية متعلّقة

77 - فراس السواح، أساطير الأولين، سبق ذكره: 168

78 - ابن خلدون: المقدمة، سبق ذكره، ج 1/ 554-555

79 - المصدر نفسه: ج 2/ 82

بشكل من أشكال القراءة، وأنَّ ابن خلدون كان ملتفتاً إلى هذا الجانب من التفسير الإسلامي المنكفئ على إحدى القراءات والمرجعية التوراتية، وأنَّه لم يغفل القراءات الأخر التي قد تأخذ النص القرآني مع حكايته إلى مديات تفسيرية أبعد، ويكون لها ثمة ما يثبتها تاريخياً وما يتساق معاً تأويلياً، ولهذا نجده قد استشهد بهذه القراءة لإثبات أنَّ هاروت وماروت كانا ملكين من ملوك بابل السريانيين، ويضيف: «فيكون اختصاص هذه الفتنة، والابتلاء ببابل من بين أقطار الأرض، دليلاً على وفور قسطهما من صناعة السحر الذي وقع الابتلاء به، ومما يشهد لانتحالهم السحر وفنونه من النجوم وغيرها، إنَّ هذه العلوم وجدناها من منتحل أهل مصر المجاورين لهم، وكان ملوكها عناية شديدة بذلك، حتى كان من مباهاتهم موسى بذلك وحشر السحرة له ما كان، وبقايا الآثار السحرية في براى أحميم من صعيد مصر ما يشهد بذلك»⁸⁰، وهناك إشارة أخرى تعزز ما ذهب إليه ابن خلدون بشأن أهل مصر، إذ يذكر المسعودي ما نصه: «وفي كتب المصريين أنَّ هاروت وماروت كانا في وقته بمصر، فعلمَّا أهل مصر أصنافاً من السحر، فنُقلا بعد الطوفان إلى أرض بابل، وتعلم عراقي من علمها»⁸¹، وهذا الرأي يعزز لدينا الفناعة أنَّ أسطورة هاروت وماروت تضرب جذورها في العمق البابلي؛ لأنَّ وجودها داخل المدونة التراثية لليهود تعني من غير المستبعد أن يكون هاروت وماروت ملكين من ملوك بابل دارت حولهما قصة عجيبة في السحر آنذاك، فاسترفدها اليهود كما هو حال العديد غيرها من ثقافة التراث البابلي، إذا ما أخذنا بالحسبان أنَّ كتاب التوراة قد تم تدوينه بعد السبي البابلي.

(فراس السواح، لغز عشتار، سبق ذكره: 115)

80 - المصدر نفسه: ج2: 82

81 - المسعودي، أخبار الزمان ومن أبادهُ الجدثان- وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس، بيروت- لبنان، ط1، 1996: 143. والهاء بعبارة (في وقته) عائدة لـ (عرباق بن عيقام) أحد ملوك مصر. ويذكر المسعودي أنَّ النبي إدريس (ع) رفع في وقت عيقام الكاهن: المصدر نفسه: ج2/ 143. وهناك من يذيل القصة بالقول: «وقيل إنَّ ذلك بعد رفع إدريس»: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 1995: ج1/ 226

 Mominoun

 MominounWithoutBorders

 @ Mominoun_sm

info@mominoun.com

www.mominoun.com

مُهْمِنُون بِلا حُدُود

Mominoun Without Borders

www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

